جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مع الرسول صلى الله عليه وسلم

- ميلاد أمة الحق والتوحيد
- في ذكرى المولد النبوي
- شهر ربيع الأول والمدائح النبوية
- الأشهر الحرم في كتاب الله تعالى

الدكتور علي العماري

العدد ٢٤٦
السنة الحادية والعشرون
ربيع الأول ١٤٠٢ هـ
يناير ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

ليس هذا كتاباً فى السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فكتب السيرة قديمة وحديثة تملأ المكتبات الإسلامية ، وإنما هى فصول تتصل بالسيرة النبوية رأيتنى مشوقاً إلى الكتابة فيها حباً وإخلاصاً ووفاء لصاحب هذه السيرة الكريمة العطرة .

والرابطة بينها جميعاً صلتها الوثيقة بحياة رسولنا محمد — صلى الله عليه وسلم — وبسنته المطهرة .

وما من شك فى أن من أحب الأمور إلى النفس المؤمنة أن تكتب أو تقرأ أو تسمع كلمة يتردد فيها اسم الرسول الكريم ، الطاهر الأمين .

وسيجد فيها — كما أعتقد — المخلصون لإيمانهم نفحات طيبة من حياة الرسول ، ونفحات أخرى طيبة تتصل بحياته ، أو حياة بعض صحابته ، وفى ذلك ما يمتع الروح ، ويرضى العقل ، ويثلج الصدور ، ويقر العيون .

وربما وجد فيها بعض الناظرين ما يوشك أن ينكره ، وينحى باللائمة على كاتبه ، فليعلم أنى كتبت ما كتبت خالصاً لله تعالى ،

واجياً لنفسى ولإخوانى المسلمين التوفيق فى أن نسير على الجادة ، ونتبع — ما أمكننا — الطريق القاصد ، والنهج القويم .

وقد حرصت على أن تنشر هذه الفصول فى ذكرى مولده — عليه الصلاة والسلام — فإن أكثرها يدور حول هذه الذكرى ، وحول مولده المبارك على الإنسانية كلها .

وقد كانت حياته كلها — صلى الله عليه وسلم — جهاداً فى سبيل نشر دعوته ، وعملا دائباً شاقاً لأداء الرسالة ، وتبليغ الأمانة ، فلم يكن عجباً أن نعرض فى هذه الفصول بعض المواقف البارزة من سيرته ، أو سيرة بعض أصحابه التى كان فيها من عنت الحياة ، ومن قسوة الأيام ما يقوى العزائم ، ويجلى معادن النفوس الكريمة ، كما رأيت من واجب المسلم لإخوانه المسلمين ، وأنا أتحدث عن ميلاد رسولهم أن أقف وقفة قصيرة أدافع فيها عن سنته ، وأرشد فيها إلى أقوم الطرق لنشرها ، والدعوة إلى العمل بها .

وهذا واجب العلماء بعامة ، ينبغى أن يبينوا للناس دون أن تأخذهم فى الله لومة لائم ، وهم حريون ألا يسكتهم عن بيان الحق خوف العامة ، أو مجاملة بعض الخاصة .

ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره .

مكة المكرمة فى شوال سنة ١٤٠١ هـ

سبتمبر سنة ١٩٨١ م — المؤلف

على محمد حسن (العمارى)

الشعاع الأول

قصيدة نظمتها من سنين طويلة فى ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام

شع نور فى مظلمات البوادى فأفاض السنا على كل واد
وتجلى على الحياة شعاع من ضياء الحقيقة الوقاد
ودها الفرس من هدى الحق رعب أطفأ النار بعد طول اتقاد
خفقات فى قلب إيوان كسرى زازلت ركنه الرفيع العماد
والمقادير غيضت ماء (ساوى) لا تسلنى عن حيرة الوراد
تلك آيات مولد الرشد ذاعت تنذر الأرض باقتراب الرشاد

***

علم الدهر كيف يصغى إليه ناشئ لم يزل رفيق المهاد
ضارباً فى الفلاة يرعى شياها رائح بالعلا ، وبالطهر غاد

***

تلك يا باعث الشعوب نجاد تعشق الفى ويلها من نجاد
ووهاد تكاد تشكو بنيها رحمة الله طوفت بالوهاد
هكذا جاءت الرسالة تمحو كل عات على الليالى وعاد

خفضت من جباههم وأذالت … دولة الظلم والهـوى والعناد
حطمت كبرهم على صخرات … عبدوها من دون رب العباد
جمعتهم كالعقد نظماً وكانوا … كرمال الصحراء فى كل واد

***

ما أضل الإنسان أغرب حتى … للأضـاليل بات ملقى القياد
قل شىء يحن للمـاء عذبا … غير نفس الغوى وهو الصادى
ماهذى الجبـال تهتز بشرا … أيحس الجماد طعم الشهـاد
ولهذى الصحـراء تألق نورا … هل أحست بمقبل الاسعاد
وكأن الزمان أعطى عقـلا … فهو يهفو لساعة الميـلاد
وكأن الأيام تنهب الخطـ … ـو لتحظى بلثم خير الأيادى
وكأن الحصاة من بلدتيـ … ـه تفضل الدر من جميع البلاد

***

يا نبى الهـدى إليك شكاتى … من بنى قومنا الصحاب الأعادى
زعمـوا ضلة إليك اشتياقا … أين ما قدموا ليوم التنادى ؟!
رب قلب أخاله (نار موسى) … فإذا ردته فشبه الرمـاد
رب قلب أخاله (روح عيسى) … فإذا مسنى فصلد الجمـاد
رب قلب أخال فيه شعاعـاً … من ضياء الحقيقة الوقـاد
فإذا فيه ألف ليل مخيـف … قاتم الجنح مفرق فى السواد
ألف الناس ظلم من لم يسمهم … غصة البغى أو هوان الأياد
وأحاطوا بالشك كل بـرىء … طائف الشك شر ما فى العباد

والبرايا في حلبة الظلم والشـ ـر وسوق الفساد خيل طراد

***

يا نبي الهدى إليك شكاتي من أفاع قديمـــة الميلاد
نفثت في العقول منها سمــوماً وارتضاها الآبـــاء للأحفاد
(بدع) غبرت على الرائد الحـ ـــق فند الهدى عن الرواد
ذكر ميلادك الحبيب تنـــادى فيـــه أقوامنـــا بغير السداد
يشبه اللهو ما أتـــوه فهلا كان للمسلمين يوم جهـــاد

ميلاد أمة

لم يكن يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول عام الفيل ، الذى وافق التاسع عشر من أبريل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بعد ميلاد المسيح — عليه السلام — لم يكن هذا اليوم إيذاناً بوسول عظيم فحسب ، وإنما كان — مع ذلك — إيذاناً بميلاد أمة يجمعها هذا الرسول على الحق والخير ، وترسم لها هداية السماء طريقاً محددة ، واضحة المعالم ، مأمونة العثرات لتسير فيها على هدى وبصيرة لتبلغ أسمى الغايات فى الدنيا والآخرة .

ولم يكن أحد فى (مكة) يدرى شيئاً إلا أنه ولد طفل يتيم فى بنى هاشم ، وأنه أشاع السرور بين أفراد العشيرة ، ومن يتصلون بها من الجيرة والأصدقاء ، وأشاعت ولادته كثيراً من الرضا فى أهل مكة ؛ لأنه سيكون ذكرى والده الذى احتضر فى ريعان الشباب بعيداً عن أهله وموطنه .

ولئن كانت الأحداث الغريبة التى لفتت الأنظار فى ذلك اليوم اعتبرت فيما بعد إرهاصا بقرب ظهور نبى جديد ، فقد كانت كذلك إشارة إلى أن أمة جديدة ستغير وجه التاريخ ، وستقدم

للإنسانية زاداً من الحضارة والمعرفة والرق على وشك أن تأخذ مكانها فى الوجود الإنسانى .

وإذا كان الأفراد ينزعون فى أعراقهم إلى ما كان فى آبائهم وأجدادهم من سجايا وأخلاق فيأخذون منها ، وينشأون عليها ، فإن الأمم كذلك تسرى فيها الأخلاق التى كانت فى خلاياها الأولى التى تكونت منها ، كلا أو بعضاً على حسب ما تعين عليه البيئة الجديدة ، وتسمح به الظروف والملابسات التى ينشأ فيها الأبناء .

وقد كان الشعب العربى اللبنة الأولى فى بناء الأمة الإسلامية .

ومهما قيل فى العرب الذين عاشوا زمن الجاهلية من أنهم عبدوا الأصنام ، وقدسوا الأوثان ، وخضعوا لعادات وتقاليد وأخلاق غير مرضية ، فإنهم — ولا شك — كانوا — مع ذلك — خيراً من شعوب كثيرة سبقتهم فى التاريخ ، أو عاصرتهم ، حتى خضوعهم للأصنام كان — بحسب زمنهم — يهون منه إيمانهم بقوة غيبية قادرة ، يدينون — فى الحقيقة — لها ، ويؤمنون بها ، يؤيد ذلك ما تحدث به القرآن الكريم فى هذا الشأن عنهم ، فقد جاء فيه حكاية عنهم ، وهم يعنون الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[1] .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٣ .

ولا كذلك شعوب أخرى بالغت فى شأن آلهتها ، وعاشت حياة كاملة تدين بالخرافات والأساطير التى تتصل بهذه الآلهة .

فإذا تجاوزنا هذا الأمر وجدنا للعرب أخلاقاً سامية ، وصفات كريمة رفيعة ، قلما وجدت مجتمعة فى شعب آخر : الشجاعة ، والكرم ، والوفاء ، وحماية الجار ، ونصرة المظلوم ، والحفاظ على الأعراض ، والترفع عن الدنايا .

حتى الأخلاق الذميمة التى شاعت بينهم لم يكن مردها إلى ضعف فى نفوسهم ، أو دناءة فى طباعهم ، وإنما كان أكثرها إسرافاً فى طبائع كريمة ، فالعزة والأنفة ، والاعتداد بالشرف ، كل ذلك حملهم على ألوان من الأخلاق لم تحط من نفوسهم وأن كانت غير مرضية فى سلوك الجماعات .

فكانت هذه الطبائع الكريمة — والله أعلم حيث يجعل رسالته — بعض ما نظن أن حكمة الله سبحانه وتعالى اعتدت به حين شاءت أن يكون خاتم أنبيائه ، وأكرم رسله عليه ، وأفضلهم عنده ، أن يكون هذا الرسول من العرب ، أرسله إليهم ليتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وليجعلهم طليعة الأمة الإسلامية ، والحاملين لهذه الرسالة ، يبلغونها ، ويكونون بأنفسهم وبأخلاقهم الإسلامية ، وفضائلهم النفسية هذه الأمة : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[1] .

حقيقة أن العرب ما كانوا يكونون شيئاً لو لم ينزل فيهم القرآن ، ويبعث الله فيهم هذا الرسول الكريم الأمين .

فقد كان من طبيعة السنن الكونية أن يظلوا قبائل متفرقة متناحرة يسود بينهم الجهل والجهالة ، وتتخطفهم الأمم من حولهم ، وأن يظلوا أعداء متنافرين على شفا حفرة من النار — كما تحدث بذلك القرآن — : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »[2] .

ولكن من الحق — أيضاً — أنهم حين دخلوا فى الإسلام ظهرت فضائل كانت أصيلة فيهم ، وتكشفت نفوسهم عن معادن كريمة . طبعها الإسلام بطابعه . وصقلها أيما صقل .

وقد استجاب من أسلم منهم — راضياً — لحمل أمانة الدعوة ، وحمايتها ، وتبليغها ، ففتحوا الممالك ، وكانوا القدوة الحسنة فى سياسة الشعوب ، وإقامة الحق والعدل فيها ، تلك الشعوب التى كان

---

(١) آل عمران الآية : ١٦٤
(٢) آل عمران الآية : ١٠٣

دخولها فى الإسلام إيماناً بفضائله من جهة ، وإعجاباً بأخلاق مبلغيه وحملته من جهة أخرى .

والإسلام — من غير شك — هذب نفوس العرب ، وأزال عن أخلاقهم كثيراً من الشوائب ، ولكنه — فى الوقت ذاته — لم ينزع من هذه النفوس كثيراً من الأخلاق ، بل أبقى عليها ، وسار بها فى طريقها الصحيح .

وقد كانت مهمة الإسلام تكون أكثر مشقة لو أنه جاء لقوم حرموا هذه الأخلاق الرفيعة ، لأنه كان عليه — حينئذ — أن يغرس فى نفوسهم من جديد كل هذه الأخلاق التى سادوا بها فى الجاهلية ، وفى ظل الإسلام .

ومن البديهى أن الذين استجابوا للإسلام فى عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، والذين حملوا عنه أمانة الدعوة كانوا صفوة الشعب العربى ، ولا أدل على ذلك من سيرهم التى تحدثنا عن صفاتهم النفسية ، كما تحدثنا عن أثر الإسلام فيهم .

ثم كان الذين استجابوا للدين الجديد من الشعوب الأخرى هم صفوة تلك الشعوب ، ومن هؤلاء وهؤلاء تكونت الأمة الإسلامية التى ولدت — فى الحقيقة — يوم ميلاد الرسول .

ولهذه الأمة من الأخلاق والتقاليد وأنواع السلوك ما يستنفد

أسفاراً كباراً ، ولكنا نؤثر أن نتحدث هنا عن شئ واحد ، هو بعض ما وصف به القرآن هذه الأمة من صفات كريمة رفيعة .

يقول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »[١] والخطاب للمسلمين .

ويقول سبحانه مخاطباً المسلمين أيضا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[٢] .

ويقول عز من قائل : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[٣] « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[٤] .

وجاء فى سورة (البينة) : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

فهذه صفات أربع ، وصفت بها الأمة الإسلامية فى القرآن الكريم أنها أمة وسط ، لا تفرط ولا تفرط ، وأنها خير أمة أخرجت للناس أو خير البرية ، وأن المؤمنين هم الأعلون ، وأن العزة لهم دون الناس .

---

(١) سوره البقره الآية : ١٤٣
(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠
(٣) آل عمران الآية : ١٣٩
(٤) سورة (المنافقون) الآية : ٨

وهذه الأوصاف – على وجازتها – تبين مكانة الأمة الإسلامية من بقية الأمم ، ومظاهر هذه المكانة ، وأسرارها .

فهذه الأمة « خير أمة » ،والمؤمنون الذين تتألف منهم هذه الأمة « خير البرية » ومظهر ذلك أن هؤلاء المؤمنين اختاروا مع رسولهم الفطرة ، وهيأها الله لهم ، وأعانهم على السير فى طريقها ، والتحلى بما توجبه من جميل الصفات والأخلاق والعادات والعقائد .

فهم وسط فى كل شئ ، لم يغالوا مغالاة بعض الأمم ، ولم يفرطوا تفريط بعضها الآخر .

فمن الأفراد والجماعات فى الماضى والحاضر والمستقبل من يلتزم طرفاً واحداً من كل أمر له طرفان مذمومان : قوم يعبدون المادة ويرون أن الحياة مال وجاه ومتعة ولذة ، ولهو ولعب ، وقوم يقدسون الروحانية ، ويرون أن المادة وما يتصل بها دنس ينبغى أن يتنزه الإنسان عنه . كان كل من هذين الفريقين فى الشعب اليونانى ، فكان فيه أنصار مذهب اللذة ، وكان فيه أنصار التقشف والعزوف عن متع الحياة ، وكان ذلك فى المذاهب الشرقية التى ظهرت فى فارس وغيرها ، وكان اليهود – ولايزالون – يعبدون الذهب ، وكان كثير من المسيحيين فى القديم يترهبون ، ويعزفون عن متع الحياة ... وهكذا .

ولكن المسلمين الذين يفقهون حقائق دينهم حق الفقه كانوا وسيظلون وسطاً ، لا يرفضون الدنيا ، ولا يهملون الدين ، وهذا

السلوك هو الذى يلائم الحياة الفاضلة ، الحياة التى تستطيع أن تعطى أصحابها ، وتعطى الآخرين أسباب البقاء .

والناس حين ينصفون فى أحكامهم ، ويرجعون إلى ضمائرهم لا يجدون خيراً من التوسط فى الأمور ، سواء كانت هذه الأمور مبادئ للسلوك ، أو وسائل لتحصيل العيش ، أو شعائر العبادة .

ومن أوضح وآكد ما يستشهد به هنا قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ؛ فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى [1]

ومن وحى الوسطية فى الأمور قال الشاعر العربى :

إذا كنت تبغ العيش فابغ توسطا   فعند التناهى يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهى أهلة   ويدركها النقصان وهى كوامل

على أنه كان فى الشعراء ، بل فى سائر الناس المفرط والمفرط ، يقول أحد الشعراء :

---

(١) الحديث الصحيح فى هذا المعنى هو الذى رواه البخارى عن أبى هريرة : (أن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة) .

أما هذا الحديث فقد قال الحافظ العراقى فى تعليقه على كتاب (إحياء الدين) للغزالى : (والبيهقى من حديث جابر : (أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله) . ولا يصح إسناده . (جـ ١ ص ٣٥٢ هامش الأحياء) .

ومن عرف الأيام معرفتى بها   يبادر باللذات قبل النوائب

ويقول الآخر :

دنيا تراودنى كأنـــــــى لست أعرف حالها
حظر الإلــــــه حرامها   و أنا احتميت حلالها

وكلاهما تنكب المنهج الإسلامى القويم .

وقد شرع الإسلام لأتباعه كل ما ينير لهم طرق السلوك فى كل شئونهم . مع خالقهم ، ومع الناس ، ومع نفوسهم ، وكان الاعتدال فى الشئون كلها هو أساس هذا التشريع .

وحين وصف القرآن الأمة المسلمة بأنها خير أمة بين سر ذلك فى نفس الآية .

الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله .

فهى بهذا السلوك الكريم الوفيع تحافظ على أن تبقى للدين الكلمة العليا ، وأن يظل أتباعه متمسكين به ، فيبقى لهم سر تفوقهم على الأمم ، وبذلك يشعر كل فرد فى هذه الأمة أنه مسئول عما يفعله الآخرون حفاظاً على الدين وتعاليمه ، وهذا يقتضى أن تكون عند الآمر الشجاعة والإيمان والإخلاص ، والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وهذا هو الدين الصحيح كما أخبر بذلك الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وهذه الصفات هى التى تحمل المؤمن على أن يرشد أخاه إلى الخير ، وينهيه إلى ما يقع فيه من شر ، فالمؤمن مرآة أخيه ، وأن تكون عند المدعو إلى الطريق القويم السماحة والتواضع ، والرغبة الأكيدة فى التزام مناهج الدين ، تلك التى ترفع من نفسه الغضاضة حين يأمره أحد أو ينهاه .

وقد حدثنا القرآن الكريم فى كثير من المواضع عن ضرورة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر لبقاء بناء الأمة الإسلامية سليما ، وأن الناس كلهم فى خسار « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

كما أزرى القرآن على اليهود ، وأخبر أنهم لعنوا على ألسنة أنبيائهم ؛ لأنهم تغاضوا عن المسئ فلم يأخذوا على يده : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »[1] .

والإيمان بالله ورسوله ، والعمل الصالح هما الأساسان القويان اللذان قامت عليهما هذه الأمة ، وكانت بهما خير الأمم ، فبالإيمان بالله كانت الأمة الإسلامية أمة عزيزة ، لا تذل لأحد ؛ لأنها لا ترى فى الوجود أحداً (أكبر) ، وإنما الأكبر هو إلهها

(١) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ ، ٧٩

ولا أحد سواه ، وكان أفرادها هم الأعلون لأنه لاينبغي أن يكون أحد أعلى ممن يعتصم بحبل الله .

تلك هي الأمة التي كان مولد محمد — صلى الله عليه وسلم — إيذاناً بمولدها ، وكان محمد بصفاته العالية ، وأخلاقه الرفيعة — القدوة لها ، والأسوة . وقد نشأت أمة كاملة منحت العالم في تاريخها الأول أفضل ما في البشرية من العدل والأخاء والمساواة ، وظلت كذلك حقباً طويلة من التاريخ ، وإذا كان شيء من الضعف والوهن قد تسرب إليها فإن ذلك عارض لابد أن يزول ، لأن بين يديها ما يعيد لها مجدها ، عندها تعاليم هذا الدين الذي ولدت يوم ولد ، وهي تعاليم لن تبلى ، وان يخلق الزمن جدتها ، ولن يأتي الناس مهما سمت عبقرياتهم بتعاليم أفضل منها ، فلابد أن يكون إليها المرجع في نهاية المطاف ، وستكون هذه الأمة هي القائمة بأمر الله ، وهي الهادية لتلك القوافل الضالة من أبناء البشرية الذين مزقتهم الأهواء ، وتحكمت فيهم شهواتهم فأبعدتهم عن الطريق القاصد ، وحادت بهم عن الجادة ، ولن يجدوا المصباح الهادي ، والناصح الأمين إلا في تعاليم الإسلام ، كما لن يجدوا الأستاذ الموجه إلى الخير ، المرشد إلى الحق والعدل في غير الأمة الإسلامية

وها نحن أولاء نرى من حولنا المذاهب المادية أخفقت كلها في إسعاد البشرية ، ولا نرى لها هدفاً إلا السيطرة على مقدرات الشعوب ، ولا غاية إلا أن يقضي كل واحد منها على الآخر ،

ومن هنا أمعن أرباب هذه المذاهب فى اختراع أسلحة الدمار ، وما هى إلا طيشة من أحمق فإذا الأرض غير الأرض ، وإذا الحضارة كلها فى أعماق الجحيم .

فأين هذه المذاهب الضالة من التشريع الإسلامى الذى يحقق للجميع العيش فى أمن وسلام ، وأين هذه الأمم المتناحرة من الأمة الإسلامية التى سادت فى أزمنة متطاولة فما وجد الناس فى ظلها إلا الطمأنينة والأمن ، وما عكر عليها صفوها إلا الأحقاد والأطماع التى سيطرت على بعض الأمم فدفعتها إلى أن تبسط سيطرتها بالقهر والغلبة ، وأن تأكل الشعوب المستضعفة . لا تصدر فى ذلك عن دين صحيح ، ولا عن خلق قويم .

وستبقى البشرية زمناً — أعتقد أنه لن يطول — تنتظر بصبر فارغ ، وشوق شديد من يأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان ، ويجنبها ويلات العابثين بها ، ثم تجد هذا المنقذ فى تعاليم الإسلام ، وفى الرجوع إلى الله تعالى ، وحينئذ ستنبذ كل هذه المذاهب الضالة ، وتتمسك بحبل الله المتين ، وبشرعه القويم ، وستكون الأمة الإسلامية هى المنار الهادى ، والشاطئ الأمين .

فى ذكرى المولد النبوى الشريف

جميل أن يحتفل المسلمون بأعيادهم ، وأن يذكروا أيامهم الخالدة فى تاريخهم ، وأن يعيدوا إلى الأذهان ما كان فى تلك الأيام من مآثر أفاد منها الإسلام ، وأثرت فى حياة البشرية ، وجميل أن يقف المسلمون فى إجلال وإعجاب ببطولات أسلافهم ، وحسن بلائهم فى نشر الدين الحنيف ، وتكوين الأمة الإسلامية .

ولعل من أجدر تلك الأيام بالإجلال والإكبار ، وأحقها بأن يحتفل به المسلمون ، وأن يطيلوا الوقوف عند ذكراه هو ميلاد الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، فهو الشعاع الأول الذى أضاء الدنيا حين انتشر نوره ، وعم السهول والوديان ، والأغوار والأنجاد . وهو الذى كان إيذاناً بميلاد أمة — كما أسلفت — أسست حضارة كانت أم الحضارات التى تلتها .

ومن أيام المسلمين الخالدة يوم هجرة الرسول من مكة إلى يثرب هذه الهجرة التى غيرت وجه التاريخ ، وكانت فاصلا بين عهدين من عهود الأمة الإسلامية ، عهد المسالمة والترقب والقلة ، وعهد المواثبة والمنعة والسلطان .

وكلا اليومين كان فى شهر ربيع الأول .

وحقاً — لقد قام المسلمون — فى أكثر الدول الإسلامية — بواجب التكريم لهذين اليومين ، يوم ذكرى ميلاد رسول الإسلام ، ويوم ذكرى هجرته ، من إظهار الأفراح ، وكثرة القول فيها ، والحديث عما خلفته من مآثر حسان .

وما زلت منذ عقلت أرى مدارسنا ومعاهدنا وأنديتنا ، وإذاعاتنا ومجلاتنا وصحفنا تهب يوم ذكرى أحد هذين اليومين ، فتنشر عنهما صحائف كريمة ، وتسمع الدنيا من ألحانهما أقوى الأناشيد وأعذبها .

وكذلك رأيت عامتنا وخاصتنا فى جميع بلادنا يقيمون الزينات وينصبون الرايات ، وفى يوم المولد يدقون الطبول ، وينصبون حلقات الذكر ، بل قرأت أن ذلك لم يكن فى عهدنا الحاضر بل كان منذ أزمنة قديمة ، فقد قرأت خطبة لأحد خطباء المساجد فى العصور القديمة يقول فيها : (وما جرت به العادة عند تلاوة مولده الشريف من إيقاد المصابيح والشموع ، وإقامة الزينات ، ورفع أعلام المسرات فى الطرقات والربوع فلا بأس به .. ولا بأس — أيضاً — بضرب الدفوف التى أتى الشرع بإباحة ضربها ، والترنم بالأناشيد التى مدح بها ، فإن لكل أمة عيداً ، وعيد أمتنا ليلة مولد رسول ربها ، فاستعدوا لاحتفالكم بمولد نبيكم بقدر الاستطاعة ، ولا تقتدوا بأهل البدع ، واقتدوا بأهل السنة والجماعة)[1] .

(١) السنن والمبتدعات ص ٩٤ لمحمد عبد السلام خضر .

ونريد — بكل رفق ولين — أن نقف مع إخواننا وسادتنا ممن يشاركون فى هذه المظاهر ، وممن يرونها ويباركونها ، وممن يرونها ويسكتون عن بيان وجه الحق فيها .

ولعله مما يخجل ويؤسف له أن يكون هذا وشئ غير قليل من أمثاله هو كل نصيبنا من هذه الذكرى الكريمة ، ولعلى لا أبعد إذا قلت أن هذا النهج فى ذكرى نبينا الكريم ، منقذ الإنسانية ، ورافع أسس الحياة الصحيحة الكريمة غفلة من المسلمين تبعدهم كثيراً عن العمل الصحيح لإعادة مجد الإسلام ، والسير على تعاليمه العالية ، وماذا تجدى هذه المظاهر البسيطة الساذجة ، إذا كنا نهمل الروح الإسلامية ، ونرضى بالدون ، ونقنع باليسير من حياة الجد والمجد والعزة التى دعانا إليها الإسلام ، وأوجب أن نعمل جاهدين من أجلها ، ونتفانى فى الدفاع عنها .

إن أول ما أخطأ فيه هذا الخطيب الذى نقلت فقرات من كلامه أن سمى يوم ذكرى ميلاد الرسول (عيداً) فليس لنا فى الإسلام إلا عيدان : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومن الخطأ أن نسمى أى يوم آخر سواء كان لمناسبة إسلامية أو لغيرها ، أن نسميه عيداً .

وثانى الأخطاء التى وقع فيها هذا الخطيب أنه ادعى أن الاحتفال بذكرى مولد الرسول على الصورة التى ذكرها هو مسلك أهل السنة والجماعة ، فإنى لأجزم غير متحرج أن هذا الذى يفعله المسلمون من رفع الرايات ، ودق الطبول لا يقره أحد من أهل

السنة . وكيف يقرون شيئاً لم يشر إليه الرسول ، ولم يفعله أحد من صحابته ولا من تابعيهم .

وثالث هذه الأخطاء ، أن هذه المظاهر التي دعا إليها ، وقال لا بأس بها لا تليق بهذه الذكرى الكريمة ، وماذا تجدى هذه المظاهر على الإسلام وعلى المسلمين ، لقد شغل الناس بها عن العمل القاصد في دينهم ، ولقد كان همنا ونحن صغار حين تجئ أيام المولد أن نذهب لنمتع بما يعرض في الساحات من الحلاوى ، ونستمتع بما نرى من الألاعيب التي كان يجيدها راكبو الخيول وغيرهم ، ولم يكن في أذهاننا أى معنى روحى لهذا المولد سوى ما قد نسمعه من واعظ يلقى كلمة ، أو قارئ يتلو سورة ، لم نكن في تلك السن المبكرة نفهم منهما شيئاً .

إن عمر هذه البدعة قد طال ، وأن الأيام لا تزيدها إلا إمعاناً فيما يضر ولا ينفع ، ولا أتصور أحداً يجهل ما يحدث في هذه الاجتماعات من مفاسد ، فضلا عن أنها ليست من الدين في شئ .

ولا أجدنى في حرج حين أقول أن تبعة إستشراء هذا الداء تقع على علمائنا ، فإن منهم من يباركها ، ومنهم من يشترك فيها ، ومنهم من يحبس لسانه عن قول كلمة الحق في شأنها .

لقد قلت مرة لأحد العلماء الكبار – وكان ذاهباً ليفتتح مولدا لأحد المشايخ الذين تقام لهم الموالد – قلت له : إن ذهابك إلى

هناك يقر فى أذهان العامة أن هذا عمل مشروع ، فلو أنك حين لم تستطع الإنكار بلسانك أمسكت عن الذهاب فكان هذا إنكاراً بقلبك لقد كنت أرضيت دينك بعض الرضا ، فقال إنى أذهب إلى هناك لأخفف من المفاسد التى تعرفها ، والتى تحدث عادة فى مثل هذه الموالد ، فقلت : مع أنى أشك كثيراً فى أن وجودك بين هؤلاء السادرين فى غوايتهم يخفف شيئاً مما يرتكبونه فإن ذهابك وحده إقرار لهذه البدعة .

وقد يقال أن هذه عادات دأب عليها الناس ومن الصعب أن نحملهم على الإقلاع عنها ، وأقول أن كل شئ يجئ بالتدريج فلو أن صحفنا وإذاعاتنا ووعاظنا وخطباءنا واجهوا الناس — فى رفق وفى لين — بما يرون أنه حق ، وبما هو فى حقيقة الأمر حق من إنكار هذه البدع لاستجاب الناس إن عاجلا وإن آجلا لهذه الدعوات الخيرة .

أن أول ما ينبغى أن نبدأ به أن يقتصر احتفالنا بذكرى مولد نبينا عليه الصلاة والسلام على شرح محاسن الإسلام ، وعلى بيان فضائله — صلى الله عليه وسلم — وعلى تنقية الشريعة مما علق بها من خرافات .

أما تلك الموالد التى تقام لمشايخ الأضرحة فيجب منع الناس من إقامتها بالنصيحة أولا ، ثم بقوة القانون ثانياً ، فما نعرف أن

صحابياً واحداً ، ولا تابعياً واحداً ، بل ولا عالماً يقتدى به فى العصور السالفة دعا إلى مثل هذا الذى لا أتحرج أن أسميه (عبثاً) وتشويهاً لوجه الإسلام .

وإذا كان لابد من تكريم رجل من هؤلاء الرجال فليكن بذكر سيرته إن كنا نعرف شيئاً عن سيرته ، وإن كانت فى ذاتها مما يستحق الذكر ، وأقول ذلك لأن قومنا كثيراً ما يقيمون الموالد لمشايخ لا يعرفون عنهم شيئاً إلا أسماءهم .

وقد عايشت بنفسى رجلا من هؤلاء الرجال ، عاش حياته عرياناً لا شئ عليه إلا ما يستر عورته ، ولم يكن يعى شيئاً من أمور الدنيا غير أن يأكل ويشرب ، فلما مات أقام له أولاده ضريحاً ، وبعد سنوات أقاموا له مولداً ، وخدع كثير من العامة رجالا ونساء فكانوا — ولا يزالون — يقدمون لسدنة هذا الضريح النذور والهدايا ، وسموه : (الشيخ العريان) .

إنى أتمنى أن أرى اليوم الذى تختفى فيه هذه الموالد جملة وتفصيلا .

***

إن العالم الآن يشبه من وجوه كثيرة ، عالم الأمس قبل ميلاد الرسول النبي الأمى ، فالحيرة والقلق والخوف كلها تقض مضاجع كبار الساسة فى العالم ، والفساد والظلم والخرافات تستبد بكثير من شعوب العالم ، والفضيلة والعدل والمحبة قد خفت صوتها ، وهيض

جناحها ، والرذيلة والظلم والبغضاء والإحن هى سادة العالم اليوم ، والمسيطرة عليه ، والمتحكمة فى كل أفعاله وميوله ، والدنيا — اليوم — كما كانت بالأمس تنتظر من يخلصها من كل هذه المهلكات ، فلا المنظمات الدولية ، ولا الحروب المدمرة ، ولا الأقوال المعسولة لا شئ من ذلك يقر السلام فى الأرض ، ويحل المحبة محل البغضاء ، والأخوة محل التنافر ، والعدل مكان الظلم .

وإنما هو شئ واحد ، لا تصلح الأرض إلا به ، ولا ينجو العالم من المصير المخيف إلا إذا تمسك بتعاليمه ، ذلك هو الدين .

وقد فطن فلاسفة العالم ، وأحرار الفكر لذلك .

ومن أبدع ما قيل فى هذا الشأن ما قاله (روسو) الفيلسوف الشهير : (شر الشرور فى أعمالك أن يكون الله مجهولا فيها ، فإن فى ذهاب الديانة تقويضاً لأركان الهيئة الاجتماعية) .

ويقول (فيكتور كيران) : (إن الشعوب لأشد احتياجاً إلى المبادئ الدينية منها إلى الشرائع المدنية ، والعلوم السياسية) .

ولسنا — ودون تعصب — نجد أمامنا ديناً لا يستطيع إصلاح العالم ، وإقرار السلام بين شعوبه إلا الدين الإسلامى ، فهو دين الحرية والعدل والمساواة ، ولم يكن فى يوم من الأيام دين طقوس ومظاهر ، وإنما كان العامل على إصلاح الدنيا وصلاح الآخرة ،

والموجه إلى خير الشعوب ، وإنهاض الأمم من كبواتها ، وإقرار المحبة بينها .

ولسنا نقول هذا لأننا مسلمون ، ولكن لأننا — مع ذلك — ندرك إدراكاً سليما واعياً مدى ما فى تعاليم هذا الدين من إسعاد للبشرية وخير للشعوب .

ومن الدليل على ذلك أننا لسنا وحدنا الذين نقول هذا القول بل إن من مفكرى العالم من يقول مثلنا ، وليست شريعته شريعتنا ، ولا دينه ديننا .

لقد نادى بذلك أحرار الفكر من الأوروبيين ، وأكدوا أنه لا نجاة لأوروبا نفسها إلا بالاعتماد على تعاليم الإسلام .

ومن ذلك كلمات الكاتب الإنجليزى الفيلسوف ، الطائر الصيت (برنارد شو) حيث يقول : (كنت فى كل الأحيان — ولازلت — أتناول دين محمد فأقدره تقديراً عظيما ، وذلك لروحيته العجيبة ، وحيويته العظيمة . إنه الدين الوحيد الذى يملك القدرة على هداية الغير ، وملائمة الأزمنة ، فهو حرى أن يكون دين الجميع فى كل دور وطور ، ويجب على العالم — دون شك — أن يقدر ، ويعلق أهمية عظمى على ذلك) .

(لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا ، وملائماً لأوربا فى الوقت الحاضر ، إن قساوسة القرون الوسطى ، إما بجهلهم المطابق

وإما لتعصبهم الأعمى قد رسموا الدين الإسلامى بألوان سوداء مظلمة ، وكانوا فى الحقيقة قد طبعوا على كره محمد ، ومقت دينه الحنيف ، لأن محمداً كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية . أما أنا فقد درست الدين الإسلامى ، وشخصية محمد ، تلك الشخصية العظيمة اللامعة فوجدت محمداً بعيداً عما يلحقونه به من التهم ، ويجب — فى الحقيقة — أن يسمى مخلص الإنسانية ومنقذها) .

(إنى أعتقد أن رجلا مثله او أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة ، وكان حاكماً مطلقاً لتمكن أن يقود العالم أحسن القيادة ، ولتمكن من تسيير العالم نحو طريق السعادة ، وتمشيته نحو شاطئ العدل والسلام) .

(إن أوربا الآن بدأت تحس بحكمة محمد ، وأنها بادئة فى عشق دينه وفلسفته ، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوربا فى القرون الوسطى . سيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه العالم دعائم السلام ، والسعادة ، ويستند إلى فلسفته فى حل المعضلات ، وفك المشاكل والعقد) .

(إن كثيرين من مواطنى ، ومن الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم محمد ، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى ، فأقول : إن بوادر العصر الإسلامى الأوربى قريبة لا محالة) .

هذه كلها حقائق لا يرتاب فيها منصف ، وإذاً فعلى المسلمين

بعامة ، وعلى العلماء بخاصة أن يضعوا المناهج السليمة لأن يسود هذا الدين ، ويعم ، فيسود السلام ويعم .

وأول ذلك ، وأوجبه علينا أن ننقي هذا الدين من كل ما شاب تعاليمه من خرافات وأباطيل ، حتى يبدو للناس — كل الناس — صافياً نقياً ، كما جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — .

وعندى أن هذه الموالد — بصورتها التى نشاهدها عليها — أياً كانت مناسباتها تشوه جمال الإســلام ، وإنى لأتصور عالماً أوربياً جاء إلى مصر ، ورأى هذه المشاهد فى مولد النبى ، أو مولد آخر ، فرأى الزينات ، وتماثيل الحلوى ، والرقص ، والطبول . لا أشك أنه سيرتاب فى تعاليم الإسلام — ومن الحتم أن يرتاب فى سلوك المسلمين .

لا ينبغى أبداً ، بل من العار أن تكون هذه المظاهر هى التكريم لأيامنا الخالدة ، وكما قلت ، فمع أن إقامة هذه الموالد ، وبخاصة إقامتها لمشايخ الأضرحة بعيدة عن روح الإسلام أرى أن النهج الذى يتبعه بعض المسلمين فى إحيائها ، والاحتفاء بها نهج فارغ من كل المعانى السامية .

وأمر آخر لو كنا نريد تكريم هذه الأيام الكريمة أن نحشد طاقاتنا فى كل مناسبة من هذه المناسبات لإظهار محاسن الإسلام ، والدعوة إلى التحلى بفضائله ، وإقامة شرائعه ، وأن نحمل أنفسنا

ومن نستطيع على أن يكونوا القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة لغيرهم من مسلمين وغير مسلمين ، فهذا ما يحبب الآخرين فى الإسلام ، وما يدعوهم – على الأقل – إلى النظر فى تعاليمه .

ولو أن هؤلاء الذين ينفقون الأموال الطائلة فى إقامة الموالد – وقد شهدت فى بعض المدن استمرار المولد النبوى شهراً كاملا – أقول لو أن هؤلاء اجتمعوا فى ليلة المولد الشريف وجمعوا هذه الأموال وأقاموا بها عملا خيرياً : مستشفى أو مدرسة ، أو جمعية لتحفيظ القرآن الكريم لكان هذا أجدى وأنفع ، وأكثر جلباً للقلوب ، وجذباً لها إلى حب هذه الذكرى ، والإشادة بها .

أما الموالد التى تقام لأصحاب الأضرحة فإنى لأرفع يدى الضراعة إلى الله تعالى أن يلهم القائمين بها وعليها ، أن يلهمهم أن يكفوا عن هذا العبث الذى لن يفيد أحداً فى دينه ، لا يفيد صاحب الضريح ، ولا يفيد المتمسحين به ، بل من المؤكد أن ضرره فى الدين لاحق بهم ، وسيجدون فى صحائفهم يوم القيامة ما يندمون عليه .

شهر ربيع الأول

لشهر ربيع الأول مكانة رفيعة في نفوس المسلمين ، فما يكاد هلاله يطالعهم حتى تخفق له قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، ويتأهبوا لعمل الخيرات .

ذلك أن لهم في هذا الشهر ذكريات عزيزة على نفوسهم ، أثيرة عندهم ، محبوبة لديهم .

وقد كان هذا الشهر في الجاهلية شهر الخير والبركات ، فإن العرب كانوا يرجعون فيه من غاراتهم بالغنائم والخيرات ، فسموه ربيعاً ، والربيع الخصب .

وفي الجاهلية الأولى كانت لهذه الشهور أسماء غير هذه الأسماء التي نعرفها . فربيع الأول — مثلا — كان يسمى عند بعض القبائل (طليقاً) ، وعند بعضها الآخر (وبصان) ، ثم وضعت لهذه الشهور الأسماء التي نستعملها ، ويقال : أن أول من سماها بهذه الأسماء (كلاب بن مرة) الجد الخامس للنبي — صلى الله عليه وسلم —

ولما جاء الإسلام كان لشهر ربيع الأول شرف وقدر حتى أرخ المسلمون الأولون به حيناً من الدهر ، فقد كان العرب يؤرخون

بعام الفيل ، ثم أرخوا بموت هشام بن المغيرة ، ثم أرخ المسلمون بسنة قدوم النبي إلى المدينة ، وجعلوا مبدأ التاريخ الشهر الذى قدم فيه ، وهو ربيع الأول حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأقر التاريخ بالهجرة النبوية ، ولكنه جعل مبدأ التاريخ شهر المحرم .

وقد اغتر بعض الكاتبين بصنيع عمر هذا فرأى أن هجرة الرسول كانت فى أول المحرم .

نشرت الكاتبة الفاضلة بنت الشاطئ فى عدد الأهرام الصادر فى ١٩٦٥/٤/٣٠ م مقالا بعنوان : (بدء التاريخ) ذهبت فيه إلى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بدأ هجرته من مكة إلى المدينة فى اليوم الأول من شهر المحرم على رأس السنة الثالثة عشرة من مبعثه ، وفى ذلك تقول : (وتواعدوا — تريد فتيان قريش — على اللقاء سراً لاغتياله — تريد رسول الله — فى ليلة بعينها من ليالى المحاق قبل أن يهل هلال المحرم) وتقول : (وحرس الله نبيه فعميت أبصارهم حين خروج من بيته فى تلك الليلة ، وهم يتأهبون لقتله متعوذاً منه بآيات ربه) .

وتقول فى مقدمة المقال : (بعد غد يتم عام القمر دورته ، ويبزغ هلال المحرم مجدداً ذكرى اليوم الأغر الذى انفرد بشرف اختياره بداية للتقويم الإسلامى دون غيره من الأيام ، ذلك يوم

هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من مكة إلى يثرب) .

والواضح من كل ذلك أن الكاتبة الفاضلة ترى أن قريشاً ائتمروا بقتل رسول الله ، وعزموا على تنفيذ ذلك فى ليلة الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة ، وأن النبي خرج من داره فى تلك الليلة قاصداً غار (ثور) ، وبعد أن مكث فيه ثلاثة أيام خرج مهاجراً إلى المدينة فى أول المحرم ، وأن المسلمين اتخذوا هذا اليوم بدءاً للتقويم الهجرى لأنه اليوم الذى هاجر فيه الرسول .

ولم تذكر الكاتبة دليلا واحداً من كتب التاريخ أو السيرة على رأيها هذا ، مع أن المعروف عند عامة المؤرخين ، وكتاب السيرة النبوية أن هجرة الرسول كانت فى أواخر شهر صفر وأوائل ربيع الأول ، ويمكننا إستناداً إلى ما كتبه أصحاب السير والمحققون من قدامى ومحدثين أن نحدد أيام الهجرة .

خرج النبي – صلى الله عليه وسلم – من مكة مساء الخميس السابع والعشرين من شهر صفر ، ومكث فى غار ثور ثلاثة أيام : الجمعة والسبت والأحد ، وفى يوم الاثنين الموافق أول ربيع الأول خرج من الغار متوجها إلى المدينة ، ومكث فى الطريق ثمانية أيام ، فوصل (قباء) فى الثامن من ربيع الأول ، ومكث فيها ثلاثة أيام ، وفى يوم الخميس بنى مسجد قباء ثم توجه إلى المدينة فنزل عند بنى سليم ، وصلى الجمعة هناك ، ثم دخل يثرب فى عصر ذلك اليوم نفسه .

فمن اعتبر وصول النبي إلى قباء بدء وصوله المدينة اعتبر الهجرة تمت فى الثامن من شهر ربيع الأول ، وهو يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ م ، والعاشر من شهر (تشرى) عند اليهود سنة ٤٣٨٣ للخليقة ، ومن اعتبر دخول المدينة نفسها اعتد تمام الهجرة فى الثالث عشر من ربيع الأول .

وقد حقق محمود باشا الفلكى فى رسالة له ، أسماها (نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام) أن دخول النبي — صلى الله عليه وسلم — المدينة كان فى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق العشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م .

وفى الطبرى وغيره من كتب التاريخ أن سيدنا عمر استشار أصحابه فى السنة السادسة عشرة ، أو السابعة عشرة من الهجرة فى التقويم ، فذكروا له أياماً عظاماً ، فارتضى منها هجرة الرسول ، ثم اختلفوا فى الشهر الذى يبدءون به التاريخ ، فرأى عمر أن يكون (المحرم) ، وعلل ذلك بأنه (منصرف الناس من الحج) وأنه (شهر حرام) وأنه (أول شهور السنة) ، ومعنى هذا التعليل أن أول المحرم لم يكن بدء هجرة الرسول ، ولو كان الأمر كذلك لما وقع خلاف بين الصحابة ، ولما احتاجوا فى اختيار المحرم إلى تعليل آخر .

ولو أنهم قالوا إن المحرم كان بدء هجرة المسلمين إلى (يثرب) لأن بيعة العقبة الأخيرة كانت فى موسم الحج ، وبعدها بدأ المسلمون

يهاجرون إلى المدينة أرسالا أرسالا حتى لم يبق فى مكة إلا عدد قليل ، منهم الرسول وأبو بكر ، ولو أنهم قالوا ان النبى بدأ من ذلك التاريخ يفكر فى الهجرة لكان ذلك تعليلا مقبولا ، ولكنهم لم يقولوا إلا تعليلات بعيدة عن الاعتراف بأن محرماً كان بدء هجرة الرسول .

ولعل الشبهة جاءت للكاتبة الفاضلة ، ولآخرين غيرها مما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس —رضى الله عنهما — من أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسئلوا عن ذلك ، فقالوا هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى ، وبنى إسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه تعظيما له ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه .

وفى رواية أخرى لمسلم : فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء .

ولما كان المحققون من المؤرخين ، وكتاب السيرة رأوا فى هذا الحديث تعارضا مع المشهور من تاريخ الهجرة النبوية ، فقد أخذوا يفسرون هذا الحديث ، ومن ذلك ما قاله (ابن قيم الجوزية) فى كتابه (زاد الميعاد) : (أما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء فليس فيه أنه يوم قدومه وجدهم يصومونه ، فإنه إنما قدم يوم الاثنين فى ربيع الأول ، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة فى اليوم الثامن الذى كان بعد قدومه

المدينة ، ولم يكن وهو بمكة ، هذا إن كان حساب أهل الكتاب فى صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية ، ويكون اليوم الذى نجى الله فيه موسى هو يوم عاشوراء من أول المحرم ، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبي فى ربيع الأول ، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب الشمس وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالى) .

ويؤيد ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية أن فى روايات الأحاديث ما يدل على أن النبي إنما علم بصوم اليهود أول دخوله المدينة . روى عن ابن عباس — والرواية فى صحيح مسلم — أنه قال حين صام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه قالوا يارسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال الرسول : فإذا كان العام المقبل صمنا اليوم التاسع ، قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله .

ويفهم من هذا الحديث أن النبي لم يعلم بتعظيم اليهود ليوم عاشوراء إلا قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بعام .

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن اليهود من العرب كانوا يسمون — أيضاً — بعاشوراء اليوم العاشر من شهر (تشرى) ، وهو أول شهور سنتهم ، وأن هذا اليوم اتفق أنه فى زمن مقدم النبي المدينة كان يوم الثامن من ربيع الأول ، وينقل هذا الباحث عن

(البيرونى) من كتاب (الآثار) قوله : وقد قيل أن عاشوراء عبرانى معرب ، وهو العاشر من (تشرى) اليهودى ، الذى صومه صوم الكبور ، وأنه اعتبر فى شهور العرب فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود .

هذا . والمشهور أن أول من أرخ بالتاريخ الهجرى هو سيدنا عمر بن الخطاب ، وقد ذهب بعض علماء الأزهر ، وهو المرحوم الشيخ فكرى ياسين أن أول من أرخ بالتاريخ الهجرى هو النبى — صلى الله عليه وسلم — وقد استند فى ذلك إلى ما رواه الشيخ حمزة فتح الله فى كتاب (التحفة السنية فى التواريخ العربية) من قوله : (وقفت على ما يعضد الأول إذ رأيت بخط ابن القماح فى مجموع له ، قال ابن الصلاح : وقفت على كتاب فى الشروط للأستاذ الزيادى ذكر فيه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران أمر علياً أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من الهجرة ، فالمؤرخ بالهجرة إذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وعمر تبعه فى ذلك) .

ثم نعود إلى شهر ربيع الأول ، فنقول :

فى هذا الشهر المبارك ظهرت أحداث عظيمة ، أهمها حادثان جليلان : ميلاد النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وهجرته إلى المدينة المنورة ، والمشهور عند العلماء أنه — صلى الله عليه وسلم —

ولد عند طلوع الفجر من يوم الاثنين اثنى عشر من ربيع الأول ، ولكن بعض المحققين يؤكد — استناداً إلى بعض الروايات — أنه — عليه الصلاة والسلام — ولد يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول ، وفى ذلك يقول محمود باشا الفلكى فى كتابه (تقويم العرب قبل الإسلام) : (ولا يسعنى إلا الجزم بأن ولادته — صلى الله عليه وسلم — كانت فى فصل الربيع من سنة ٥٧١ مسيحية ، ثم يحقق تحقيقاً فلكياً آخر ، ينتهى منه بهذا القول : (ويتلخص من هذا أن سيدنا محمداً — صلى الله عليه وسلم — ولد فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول ، ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ مسيحية . فاحرص على هذا التحقيق ، ولا تكن أسير التقليد) .

ولو تتبعنا شهر ربيع الأول فى تاريخ المسلمين لرأينا فيه أحداثاً خطيرة كثيرة نكتفى منها بثلاثة أحداث — غير ميلاد الرسول وهجرته — نرى أن بينها جميعاً تشابهاً عجيباً ، وإنما نعتمد فى ذلك على الراجح عند المؤرخين .

اختلف المسلمون عند وفاة الرسول فيمن يتولى الخلافة بعده ، واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليؤمروا واحداً منهم ، فجاء إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال الأنصار للمهاجرين : منا أمير ، ومنكم أمير ، وقام منهم رجل فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر قريش رهط بيننا ، وقد دفت إلينا دافة من قومكم فإذا هم

يريدون أن يغصبونا هذا الأمر . فقام أبو بكر ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : (أيها الناس . نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار — والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، أخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفئ ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله) .

فارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط ، وأوشكت أن تكون فتنة فقال عمر لأبى بكر : ابسط يدك أبايعك ، فبايعه عمر ، وبايعه الناس ، وجنب الله المسلمين الاختلاف .

وكان ذلك فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

ونعم الناس فى ظل الخلفاء الراشدين ، وتمتعوا بالعدل والحرية والمساواة على أتم وجوهها ، حتى كانت الفتنة التى ذهب ضحيتها الخليفة الصالح ذو النورين عثمان بن عفان — رضى الله عنه — ، فانشقت

عصا المسلمين ، وانقسموا فرقتين كبيرتين ، أحدهما تؤيد على ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، والأخرى تؤيد معاوية بن أبي سفيان — رحمه الله — ، واستحكم الخلاف حتى اقتتلوا ، وأريقت دماء زكية عزيزة ، وانتهى الأمر بقتل على ، ومبايعة أصحابه لابنه الحسن — رضى الله عنه — وتأهب هؤلاء للقتال مرة أخرى ، وأوشكت تعود الحرب بين المسلمين ، ولكن الحسن آثر السلامة ، وفضل حقن الدماء ، وذهب إلى معاوية وتنازل له عن الخلافة ، وخطب خطبة بليغة ، فقال : (أما بعد ، يا أيها الناس فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وأن الله تعالى قال لنبيه — صلى الله عليه وسلم — : وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) .

وسلم الحسن الكوفة لمعاوية ، ودخلها هذا لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، ويسمى المؤرخون هذا العام (عام الجماعة الأولى) لاجتماع كلمة المسلمين فيه لأول مرة بعد مقتل عثمان .

***

وحكمت دولة بنى أمية زهاء مائة سنة ، لقى الناس فيها الخير والشر ، وشربوا الحلو والمر ، إلى أن تأذن الله بانقراضها ، وقيام دولة بنى العباس على أنقاضها ، وهى أول مرة تكون الخلافة فى بنى هاشم بإجماع المسلمين ، ويبايع أول خليفة من هذه الدولة

التى استمرت أكثر من خمسة قرون ، وهو أبو العباس السفاح ، يبايع فى ربيع الأول سنة ١٣٢ من الهجرة ، ويصعد منبر الكوفة فيخطب خطابة جامعة يذكر فيها فضل أهل البيت ، وثناء الله عليهم ، وإيجاب حقهم ومودتهم على الناس ، ثم يقول : (وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة ، فشاهت وجوههم . لم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم . وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وتمم بنا النقيصة ، وجمع الفرق ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم واخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم) .

[وبعد] :

أليس من المصادفات الغريبة أن تكون كل هذه الأمور فى شهر ربيع الأول ، وبينها هذا التشابه العجيب ؟

ميلاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعظم ما حدث فى تاريخ البشرية ، كان إيذاناً بتطور خطير فى تاريخ العالم .

وهجرته إلى المدينة كانت تطوراً آخر فى تاريخ الإسلام ، بل هى الحادث الأعظم فى تاريخه — بعد مولد الرسول ، وبعثته — بها بدأ نفوذ الإسلام يقوى ، وشوكته تشتد ، ودعوته تعم الآفاق .

ثم كانت خلافة أبي بكر بدءاً لعصر الخلفاء الراشدين . هذا العصر الذى فتحت فيه الممالك . فتحت مصر والشام وفارس ، وثبتت قواعد الإسلام ، وانتشر فى بقاع كثيرة ، وتكاد تجمع كلمة المؤرخين على أن هذه الأحداث الثلاثة كانت فى شهر ربيع الأول .

ثم جاءت دولة بنى أمية فحافظت على رقعة الدولة الإسلامية ، لم تضع منها شبراً واحداً ، بل دخل المسلمون فى عهدها أوروبا ، وحكموا بلاد الأندلس بعد فتحها فى عهد هذه الدولة ، وظل حكمهم فيها ثمانية قرون .

ثم جاءت دولة بنى العباس فكان عهدها العصر الذهبى للغة والدين والعلم والحضارة الإسلامية ، فيها ظهر نوابغ العلماء والكتاب والشعراء ، ووضعت أكثر العلوم الإسلامية ، وترجمت العلوم الأجنبية .

ثم . أليس من المصادفات العجيبة أن يكون مولد النبى صلى الله عليه وسلم — فى يوم الاثنين ، ومبعثه فى يوم الاثنين ، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم — كما ذكر الطبرى فى تاريخه .

ثم يكون وصول النبي إلى (قباء) الذى يعتبره المحققون من المؤرخين مبدأ لدخوله المدينة ، يكون ذلك فى يوم الاثنين ، ثم تكون خلافة أبي بكر ، وبدء عهد الخلفاء الراشدين فى يوم الاثنين أيضاً ؟ ! !

ولكن لله تدبيراً تقصر عن إدراكه العقول وتعجز عن الوصول إلى حقيقته الأفهام .

الأشهر الحرم في كتاب الله تعالى

كان مما حافظ عليه العرب من شريعة إبراهيم — عليه السلام — تعظيم أربعة أشهر فى السنة القمرية ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد .

كانوا يمتنعون فيها عن الغارات والثارات ، والقتـــال بجميع أنواعه وكان احترامهم لها عظيما ، حتى كان الرجل منهم يلقى قاتل أبيه أو أخيه — ويتمكن منه — فلا يعرض له ، تعظيما لحرمة الشهر الحرام .

وإنما حافظوا على حرمتها لحاجتهم الشديدة إلى الأمن فى أشهر الحج ، حيث يقصدون مكة لأداء المناسك ، وللتجارة ، ثم ينصرفون إلى مساكنهم فى وسط الجزيرة وأطرافها ، ثم عظم عليهم — بعد زمن طويل — أن يستمروا ثلاثة أشهر دون إغارة أو قتال ، فى حين كانت حياتهم تعتمد على الصيد وعلى الغارات ، فظهر فيهم رجال ذوو مكانة ورياسة استجابوا لرغبات بعضهم فى التحلل من هذه الشريعة على وجه من الوجوه .

رفعوا الحرمة عن بعض الشهور ، وحرموا مكانه شهراً آخر ، فكان الرئيس منهم يقف فى الجموع وينادى بأنه أحل (المحرم) وحرم (صفرا) مكانه ، وبذلك تكون المخالفة فى خصوص الشهور لا فى أعدادها ، وهذا ما كانوا يسمونه (النسئ) ، وكان مفخراً من مفاخرهم ، يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين على معدٍّ ... شهور الحل نجعلها حراما

ويقول آخر :

وكنا الناسئين على معد ... شهورهم الحرام إلى الحليل

فلما جاء الإسلام أبقى على هذه الشعيرة من شريعة إبراهيم ، ودعا إلى المحافظة عليها ، وأنكر عليهم النسئ ، بل شدد فى النكير حتى اعتبره زيادة فى الكفر .

وقد ورد ذكر الأشهر الحرم فى ثلاث سور من سور القرآن الكريم : البقرة ، والمائدة ، والتوبة ، وجاء ذكرها فى موضعين من كل سورة من هذه السور .

وسورة البقرة نزلت فى الطريق بين مكة والمدينة أيام الهجرة ، ثم نزلت سورة المائدة ، ثم نزلت سورة (براءة) فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وسنمضى مع الآيات الكريمة بحسب ترتيبها فى المصحف ، ونبين

ما اقترن بكل آية حتى نقف على صورة واضحة تمثل لنا نظرة الإسلام مكتملة نحو هذه الأشهر الحرم .

وأول هذه الآيات فى الترتيب المصحفى قول الله تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

ذكر العلماء أنها نزلت فى عمرة القضاء ، بعد عام (الحديبية) فى ذى القعدة سنة سبع من الهجرة ، وذلك أن النبى — صلى الله عليه وسلم — ذهب إلى (مكة) يريد العمرة سنة ست فصده كفار قريش ، فرجع بعد أن وعده الله سبحانه أنه سيدخل البيت ، فلما دخل مكة واعتمر — كما وعده الله — نزلت هذه الآية .

وقد كان المشركون فى سنة ست قاتلوا المسلمين رميا بالسهام والحجارة ، فانتهكوا حرمة (ذى القعدة) عام (الحديبية) ، وكان الكفار يعظمونه منذ الجاهلية الأولى — كما مر آنفا ، أما النبى — صلى الله عليه وسلم — فقد كف عن مجاوبتهم بالمثل لئلا يحتدم القتال بين الفريقين ، ثم خرج المسلمون فى العام بعده ، وكرهوا قتال المشركين تعظيما للشهر الحرام ، فأنزل الله — عز وجل — هذه الآية ، ترشدهم أنه لا جناح عليهم فى أن يقاتلوا فى هذا الشهر ، إذ يكون جزاء أن قوتلوا فى مثله من العام الفائت ، فمن انتهك حرمة الشهر كان معتدياً ، وليس على من يرد الاعتداء بمثله أى جناح ، ولذلك جاء قوله تعالى :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » تأكيداً لما تضمنه قوله سبحانه : « الشهر الحرام بالشهر الحرام » .

وأما قوله سبحانه : « والحرمات قصاص » فهو كالقاعدة العامة التى نهجها الإسلام للمسلمين ، والقصاص المساواة ، ووجه اتصالها بأول الآية أن الله سبحانه اقتص للمسلمين من المشركين إذ صدوهم سنة ست ، فقضوا عمرتهم سنة سبع .

وفى عموم هذه القاعدة خلاف بين الفقهاء ؛ إذ يرى بعضهم أن ما تضمنته كان معمولا به فى أول الإسلام : أن من انتهك حرمة شخص نال منه مثل ما انتهك من حرمته ، ثم نسخ هذا الحكم .

وقال الشافعى — وهو رواية فى مذهب مالك — أنه يجوز لمن تعدى عليه فى مال أو جرح أن يتعدى بمثل ما تعدى به عليه إذا أخفى ذلك ، وليس بينه وبين الله شئ .

وقالت طائفة من أصحاب مالك : ليس له ذلك ، وأمور القصاص وقف على الحكام ، والأموال يتناولها قول النبى — صلى الله عليه وسلم — : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك) .

فمن ائتمنه شخص فخانه لا يجوز له أن يخونه ، ويصل إلى حقه مما ائتمنه عليه ، وهذا هو المشهور من مذهب مالك ، وبه قال أبو حنيفة تمسكاً بهذا الحديث .

أورد ذلك كله (القرطبي) فى تفسيره ، ثم قال : قلت : والصحيح جواز ذلك كيفما توصل إلى أخذ حقه ما لم يعد سارقاً ، وأن ذلك ليس بخيانة ، وإنما هو وصول إلى حق .

وقد يبدو فى توقيت نزول هذه الآية بعض الأشكال ، ذلك أن سورة (البقرة) نزلت — كما هو المشهور — فى الطريق بين مكة والمدينة ، فهى أول السور المدنية نزولا ، وهذه الآية — إذا صح ما قيل فى سبب نزولها — نزلت سنة سبع من الهجرة .

وجواب هذا الاشكال أن سورة البقرة لم تنزل مرة واحدة ، وإنما نزلت فى أزمنة شتى ، نزلت جمهرتها أيام الهجرة الأولى ، ونزل باقيها بعد ذلك فى آماد مختلفة ، ويؤيد هذا ما قيل من أن قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ، وهو مروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — ، والآية من أواخر سورة البقرة ، ما قيل أنه كان بين نزولها ووفاة النبى — صلى الله عليه وسلم — تسع ليال .

ويأتى بعد هذه الآية فى الترتيب المصحفى قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

والمشهور عند المفسرين أن سبب نزول هذه الآية قصة عبد الله ابن جحش مع عمرو بن عبد الله بن عباد الحضرمى .

وذلك أن النبى — صلى الله عليه وسلم — بعث ثمانية رجال من المهاجرين وأمر عليهم عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، ونهاه أن يستكره أحداً من أصحابه على المسير معه بعد أن ينظر فى الكتاب ، فلما فض الكتاب وجد فيه : (إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فلما قرأه قال : سمعاً وطاعة ، ثم أخبر أصحابه بما فى الكتاب ، وبأنه لا يستكره أحداً منهم ، وأنه منفذ أمر رسول الله ، ولو لم يسر معه أحد ، وقال لهم : من أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، فقالوا : كلنا نرغب فيما ترغب فيه ، وما منا أحد إلا وهو سامع مطيع لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما ساروا معه مرت بهم عير لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، فتشاور المسلمون ، وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على لقائهم ، فرمى أحدهم ابن الحضرمى ، فقتله .

وقيل أن عبد الله وأصحابه لم يعرفوا أن اليوم الذى قاتلوا فيه كان من رجب ، إذ خرجوا فى أخريات جمادى الآخرة ، فظنوه من جمادى ، وهذا هو المروى عن ابن عباس .

وأيا ما كان فقد اتهم المسلمون أصحاب محمد بأنهم يهتكون حرمة الشهر الحرام ، والنبي — صلى الله عليه وسلم — نفسه أنكر على أصحابه ما فعلوه فسقط في أيديهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

والمعنى : يسألك يا محمد المسلمون أو المشركون عن القتال في الشهر الحرام ، فأجبهم بأن القتال فيه جرم عظيم ، وإثم كبير ، ولكن ما يفعله المشركون من الصد عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، ومن الكفر بالله أعظم عند الله إثما من القتال في الشهر الحرام .

وقد اختلف العلماء — أيضاً — في نسخ هذه الآية ، فقال بعضهم : أن قول الله تعالى : « قل قتال فيه كبير » منسوخ بقوله سبحانه « وقاتلوا المشركين كافة »[1] وبقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »[2] ، وكلتا الآيتين تسمى (آية السيف) . والنسخ هو مذهب جمهور العلماء ، فهم يرون أن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح ، وإن اختلفوا في الناسخ .

وقالت طائفة : أن القتال في الشهر الحرام مستنكر ما لم يعتد الكفار على المسلمين ، فيكون قتال المسلمين — حينئذ — دفعا لا ابتداء قتال .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٣٦

(٢) سورة التوبة من الآية : ٥

وقد روى أبو الزبير عن جابر ، قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يغزى .

وإذا صح ما قيل فى سبب نزول هذه الآية ، والآية السابقة كان ذلك موضع تساؤل .

ذلك أن آية : « الشهر الحرام بالشهر الحرام » نزلت فى سنة سبع من الهجرة ، وهذه الآية : « يسألونك عن الشهر الحرام » نزلت بسبب قصة عبد الله بن جحش ، وقد بعثه الرسول إلى مكة قبل بدر بشهرين ، وقد قيل فى ذلك : أن عبد الله بن جحش أول أمير فى الإسلام ، بل قيل له : (أمير المؤمنين) ، وابن الحضرمى أول قتيل فى الإسلام ، وما غنمه المسلمون – فى هذه الواقعة – أول غنيمة فى الإسلام .

ووجه التساؤل أنه بحسب أسباب النزول تكون الآية المتأخرة فى النزول سابقة فى الترتيب المصحفى .

ذلك واقع إذا صح سبباً النزول فى كل من الآيتين ، ومن المعروف أن بعض الآيات كان ينزل متفرقاً ، ويؤمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بأن يضع آية كذا فى موضع كذا ، وقد توضع الآية فى موضع تكون الآيات التى بعدها قد سبقتها فى النزول .

وقد جاءت فى سورة المائدة – كما أسلفت – آيتان فيهما ذكر الشهر الحرام ، ومن المشهور أن المائدة نزلت قبل براءة ، وقيل أن

المائدة آخر سورة نزلت من القرآن ، والمعروف — أيضاً — أن سورة (براءة) نزلت سنة تسع ، وأن النبي — صلى الله عليه وسلم — أرسل بها (علياً) ليقرأها على الناس فى موسم الحج ، وكان الذى يحج بالناس فى ذلك العام سيدنا أبو بكر ، ولكن مما روى — أيضاً — أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قرأ سورة المائدة فى خطبته فى حجة الوداع ، وقال : (يأيها الناس إن آخر القرآن نزولا سورة المائدة ، فأحلوا حلالها ، وحرموا حرامها) .

ومن عجيب ما يروى من ذلك أن سورة (براءة) نزلت بعد سورة (البقرة) بسنتين ، ذلك أن المشهور عند العلماء أن (البقرة) أول سورة نزلت بالمدينة ، وأن (براءة) نزلت سنة تسع ، إلا أن يكون المراد أن جمهرة سورة البقرة نزلت أولا ، ثم تم نزولها فى وقت متأخر ، ولعل ذلك كان فى السنة السابعة من الهجرة .

• • • • •

جاء فى الآية الثانية من سورة المائدة قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً » .

وجاء فى أواخرها قول الله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شئ عليم » .

وكأن الآية الثانية تعليل لما فى الآية الأولى ، على بعد ما بينهما . فالله سبحانه جعل البيت الحرام ، والشهر الحرام قياماً للناس ، أى جعل مكاناً وزماناً يأمن فيهما الناس على أنفسهم ، وعلى أموالهم ، وعلى أداء مناسكهم ، كما جعل الهدى والقلائد من أسباب الأمن لهم ، فبهذا تتحقق مصالح دنياهم ، وشعائر دينهم .

روى ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن زيد ، قال : كان الناس فيهم ملوك تدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن فى العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض فجعل الله لهم البيت الحرام قياماً يدفع بعضهم عن بعض به ، والشهر الحرام كذلك يدفع الله بعضهم عن بعض بالأشهر الحرم ، والقلائد ، ويلقى الرجل قاتل أبيه وابن عمه فلا يعرض له .

وهكذا كانت عادتهم فى الجاهلية ، لو جنى الرجل كل جناية ، ثم لجأ إلى الحرم أمن على نفسه وماله ، وكان الرجل لو لقى الهدى مقلداً لم يعرض له ، ولم يقربه مهما بلغ منه الجوع ، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فتمنعه من الناس ، وإذا عاد منه تقلد قلادة من بعض نبات الحرم فتحميه من الناس حتى يأتى أهله .

وهذه صور كانت لهم فى الجاهلية مبنية على أصل ، وهو حرمة البيت الحرام ، وحرمة الشهر الحرام ، وحرمة الهدى والقلائد ، ولا يزال الأصل فى الإسلام ثابتاً .

والمراد بالشهر الحرام — هنا — قيل : ذو الحجة ، وقيل : جنس الشهر الحرام .

ولما كانت هذه الأشياء قياماً للناس فى أمور دينهم ودنياهم نهى الله سبحانه وتعالى عن إحلالها .

وذلك — كما يقول ابن عباس — أن تصيد وأنت محرم ، وأن تقاتل فى الشهر الحرام .

وقيل المراد بإحلال الشهر الحرام النسئ الذى كان يفعله بعض السادة العرب فى الجاهلية .

والظاهر ما عليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية ؛ لإجماع العلماء على أن الله عز وجل قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم ، وغيرها ، وكذلك أجمعوا على أن المشرك او قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء شجر الحرم لم يكن ذلك أماناً له من القتل ، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة أو أمان .

وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين لقوله تعالى : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا »[1] .

والثابت أن المسلمين نهوا أن يتعرضوا لمن يقصد بيت الله من

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٢٨

المسلمين فى الشهر الحرام ، أو فى غيره ، وإنما خص الشهر الحرام لزيادة فضل له عن بقية الأشهر ، ولله سبحانه أن يفضل من الأمكنة والأزمنة على غيرها ما يشاء .

وفى سورة التوبة ورد ذكر الأشهر الحرم فى موضعين :

الأول : فى قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

لما أعلن القرآن الكريم براءة الله ورسوله من المشركين ، وحث المؤمنين على أن يتموا عهد ذى العهد إلى مدتهم ، إذا لم ينقصوهم شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ، وأمن من لم يكن له عهد أربعة أشهر لا يعرض لهم المؤمنون — أذن للمسلمين أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم إذا انسلخت الأشهر الحرم .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأشهر الحرم فى هذه الآية ، فقال بعضهم : أنها الأربعة الأشهر الواردة فى الآية السابقة ، وهى قوله تعالى : « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » ، وسميت حرما لأن الله حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين ، أى . فإذا انقضت مدة الأمان فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد .

وقال آخرون : هى الأشهر الحرم المعروفة ، ومن قال منهم أن هذه الآية نزلت ليلة النحر قال أن المدة المشار إليها هى خمسون يوماً ، فإذا انتهى المحرم جاز للمسلمين أن يفعلوا بالمشركين ما ذكرته الآية الكريمة ، والمراد بالقعود لهم كل مرصد القعود لهم فى مواضع الغرة لاغتيالهم ، أو لمعرفة أخبارهم ، وأحوالهم ، وغدوهم ورواحهم.

الثانى : فى قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » .

وفى هاتين الآيتين خلاصة كل ما قيل وما عرف عن الأشهر الحرم ، وهما وإن كانتا من آخر القرآن نزولاً كانتا معروفتى المعنى عند المسلمين من بدء الدعوة الإسلامية ، فالعرب كانوا يعظمون هذه الأشهر ، وكان كثير منهم ينكرون النسئ ، وقد أقرهم الإسلام على كلا الأمرين .

أما بيان الأشهر بأعيانها فقد ورد فى الحديث الشريف الذى خوطب به المسلمون فى حجة الوداع : (أيها الناس . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة إثنا عشر شهراً ،

منها أربعة حرم : ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان) .

قال الألوسى فى كتابه : (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب) : زعم يوسف بن عبد الملك فى كتابه (تفضيل الأزمنة) أن هذه المقالة صدرت من النبى — صلى الله عليه وسلم — فى شهر مارس ، وهو آذار ، وهو برمهات بالقبطية ، وفيه يستوى الليل والنهار عند حلول الشمس برج الحمل ، والمراد بالزمان السنة .

ومعنى كهيئته ، أى استدار مثل حالته الأولى ، والمراد باستدارته وقوع تاسع ذى الحجة فى الوقت الذى حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوى الليل والنهار .

وأضاف — صلى الله عليه وسلم — (رجب) إلى (مضر) لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه ، بخلاف غيرهم ، فيقال : أن ربيعة كانوا يجعلون بدله (رمضان) .

وذكر (القرطبى) فى تفسيره أن (علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس فى برج الحوت وقت قوله عليه السلام : (أن الزمان قد استدار كهيئته (بينها وبين الحمل عشرون درجة ، ومنهم من قال : عشر درجات . والله أعلم) .

والمشهور أن المراد باستدارة الزمان هو رجوع الحج إلى تاسع ذى الحجة ، وكان ذلك قد تغير بنسئ الشهور ، وذو الحجة هو

شهره الأصلى ، ويقال أن سيدنا أبا بكر حج فى السنة التاسعة من هجرة فى ذى القعدة ، فلما حج النبى — صلى الله عليه و سلم — وافق يوم عرفة التاسع من ذى الحجة ، وقد أصبح ذلك دينا وشرعاً .

والمراد بكتاب الله فى قوله تعالى : « فى كتاب الله » اللوح المحفوظ ، أو حكمه التشريعى .

وقال الزمخشرى : فيما أثبته وأوجبه من حكمه ، ورآه حكمة وصواباً .

« ذلك الدين القيم » أى أن تحريم الأشهر الحرم الأربعة هو الدين المستقيم . دين إبراهيم وإسماعيل .

وقيل : أى الحساب الصحيح ، والعدد المستوفى . وعن ابن عباس : أى ذلك القضاء .

قال القرطبى : والأصوب عندى أن يكون الدين ها هنا على أشهر وجوهه ، أى ذلك الشرع والطاعة .

والضمير فى « فيهن » راجع إلى جميع الشهور ، وقيل إلى الأشهر الحرم ، وعلى الأول فالأمر ظاهر ، أما على الثانى فإن تحريم الظلم فى الأشهر الحرم مع أنه محرم فى كل وقت من باب تعظيم الظلم فيها .
وقال بعض العلماء : أن الأنفس بطبعها مجبولة على الظلم والفساد ، والامتناع عنه على الإطلاق شاق على النفس . لا جرم أن الله خص

بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الإنسان فى تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات ، فربما تركها فى باقى الأوقات ، فتصير هذه الأوقات الشريفة ، والأشهر المحرمة المعظمة سبباً لترك الظلم ، وفعل المعاصى فى غيرها من الأشهر ، فهذا وجه الحكمة فى تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم ، وكذلك الأمكنة أيضاً .

ومعنى ظلم النفس فيها القتال ، وهو منسوخ بإباحة القتال فى جميع الشهور ، أو ارتكاب المعاصى فيها . ومن هنا رأى بعض العلماء أن العقاب يضاعف على الذنب فى الشهر الحرام ، كما يضاعف الثواب على العمل الصالح فيه .

ورأى الإمام الأوزاعى أن القتل فى الشهر الحرام تغلظ فيه الدية ، كما تغلظ على القتل فى الحرم ، فتجعل دية وثلثاً ، وهو مذهب الشافعى أيضاً : أن تغلظ الدية فى البلد الحرام ، وفى الشهر الحرام ، وفى قتل ذوى الرحم .

وخالف فى ذلك الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، وأصحابهما ، فاعتبروا القتل فى الحرم ، وفى الحل سواء ، وفى الشهر الحرام ، وفى غيره سواء .

وفى الآية الثانية من هاتين الآيتين وصف « النسىء » بأنه « زيادة فى الكفر » وبأنه « يضل به الذين كفروا » وأن الذين فعلوه من العرب انتهكوا شعائر الله ، فهم يحلون ما حرم الله ، وقد كانوا

يفعلونه على وجه يخيلون به أنهم باقون على شريعة الله ، فإذا أحلوا شهراً حرموا مكانه شهراً آخر ، وبذلك تبقى الأشهر الحرم أربعة ، فهى موافقة فى العدد لما حرم الله ، وإن اختلفت فى الذوات ، وهذا معنى قوله سبحانه : « ليواطئوا عدة ما حرم الله » .

وقد كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، فيستحلون المحرم ، ويحرمون صفراً ، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول . وهكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنة كلها .

وقد اختلفوا فى أول من نسأ الشهور ، فروى أنه رجل من بنى كنانة ، يقال له : (نعيم بن ثعلبة) ، وروى أنه رجل من بنى كنانة — أيضاً — يقال له : (القلمس) ، قال الشاعر :

ومنا ناسئ الشهر القلمس

وروى أن أول من نسأ عمرو بن لحى .

وكان الناسئ يقوم خطيباً إذا هم الناس بالإنصراف من الحج ، ويقول : لا مرد لما قضيت ، أنا الذى لا أعاب ، ولا أحاب (أى لا أنسب إلى حوب ، وهو الذنب) ، ثم يقول : أن صفر العام حرام، أو يقول : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم فى العام القابل ، فيقول : أن ألهتكم حرمت عليكم المحرم فحرموه .

وقد شدد القرآن الكريم النكير على النسأة ، فوصف فعلهم بأنه (زيادة فى الكفر) ، وختمت الآية بوعيد شديد أيضاً : « والله لا يهدى القوم الكافرين » . فهم كافرون ، والله لا يهدى إلى شريعته وحكمه إلا المؤمنين ، فهم المستحقون للهداية التى توصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ومن عجب ، ومن المصادفات الغريبة ، أنى حين كنت أراجع هذا البحث ظهر فى التليفزيون المصرى عالم ، له هامة وقامة ، يحدث الناس فى أمور دينهم ، ويشرح لهم بعض آيات القرآن ، وكان مما عرض له الأشهر الحرم ، فقال أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم فعجبت كيف يذهب عن مثله معرفة الأشهر الحرم ، وبخاصة أنه كان يفسر آية فيها ذكر الشهر الحرام فكان أدنى ما ينبغى له أن يعرف أن (شوالا) ليس من الأشهر الحرم .

عام الحزن فى حياة الرسول

تسع سنوات قاسيات قضاها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مكة منذ بعث ، كانت كلها مثقلة بالآلام والمتاعب ، فقد لقى فيها من عناد قومه ، ومن إصرارهم على محاربة الذى جاء به ، ومن صلفهم وكبريائهم وإيذائهم له ، ولأصحابه — وبخاصة المستضعفين منهم — لقى من كل ذلك ما تعيا بحمله الجبال الرواسى .

كان الرسول شديد الحرص على أن يؤمن هؤلاء السادة من العرب ، وعلى أن يتقبل الدعوة الجديدة الراشدة أقرب الناس إليه من عمومته وبنى عمومته ، وقد أهمه ذلك الأمر هماً شديداً ، وصفه القرآن الكريم أبلغ وصف ، حيث يقول : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »[1] . « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »[2] .

وهاجر بعض أصحابه من مكة أحب بلاد الله إليهم طلباً للأمان فى بلاد بعيدة ، فشق ذلك عليه ، ولكنه ظل ينتظر وعد الله له بالنصر والظفر .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٦

(٢) سورة الشعراء الآية ٣ .

وأجمعت قريش أمرها على أن يقاطعوا بني هاشم وبنى المطلب فحصروهم فى الشعب ثلاث سنين ، لا يكلمونهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم شيئاً ، فصبر النبي وصابر ، واليقين يملأ قلبه بأن الله — سبحانه — سيجعل له ولعشيرته ، من هذا الأمر مخرجا ، وسيجعل بعد عسر يسرا ، وقد جاءهم اليسر ، ونقض جماعة من سادة قريش صحيفة المقاطعة[1]

كل ذلك احتمله الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن ضاقت نفسه الكريمة الأبية بكثير منه .

فلما كانت السنة العاشرة من مبعثه فاجأته حادثتان ضاق بهما أشد الضيق ، وحزن من وقعهما الأليم أشد الحزن وأبلغه .

فى شوال ، وعلى التحديد فى النصف من شوال فى السنة العاشرة من حين نبئ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — توفى أبو طالب ، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة ، وبعد موته بقليل ، بشهر وخمسة أيام توفيت سيدة النساء زوجه خديجة بنت خويلد —رضى الله عنها — فاجتمع كما يقول ابن سعد فى الطبقات الكبرى[2] —

(١) هم خمسة نفر : هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أمية بن المغيرة والمطعم بن عدى ، وأبو البخترى ابن هشام ، وزمعة بن الأسود . وكان هشام بن عمرو أحسنهم فى ذلك غناء ، لأنه الذى أقنع الآخرين بنقض الصحيفة ، أما الذى شقها فهو المطعم بن عدى .

(٢) جـ ١ ص ١٠٦ .

على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مصيبتان : موت خديجة بنت خويلد ، وموت أبي طالب عمه .

وقد سمى رسول الله هذا العام (عام الحزن) .

كان أبو طالب النصير الأكبر للنبي بعد موت جده عبد المطلب وقد كانت كفالة أبي طالب له — صلى الله عليه وسلم — من أجل النعم التي امتن بها الله عليه ، جاء ذلك في قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » ، وأيواؤه أنه حين مات أبوه ، وهو صغير ، ولم يترك مالا ولا مأوى قيض له قلباً رحيما هو قلب جده عبد المطلب ، فلما مات عبد المطلب ضمه الله إلى عمه أبي طالب فكفله ، وأحسن تربيته ، وكفاه المئونة .

وكان أبو طالب — مع تمسكه بدين آبائه — حفياً بالرسول ، وبدعوته ، يدفع عنه أذى قريش ، ويخصه دون أبنائه — أحياناً — بالمودة والبر ، ويغمره دائماً بالعطف والحب ، وقد كانت قريش تعرف لأبي طالب مكانته ، وتوقره وتجله ، وتهاب أن تنال من النبي خشية من غضبه لابن أخيه .

ولم يقف أبو طالب عند الدفاع عن محمد — صلى الله عليه وسلم — بل كان يدافع — أيضاً — عمن أسلم من ضعفاء قومه .

ولما أرسلت قريش إلى (النجاشي) تطلب إليه أن يرفع حمايته عمن هاجر إلى الحبشة من المسلمين ، ولم يستجب النجاشي لطلب

قريش كتب إليه أبو طالب يشكره ، ويمدحه ، ويحضه على العدل والإحسان إلى من نزل عنده من قومه .

بل وصل بر أبي طالب بمحمد ودعوته إلى أن دعا بنى عبدالمطلب وحثهم على التمسك بتعاليم الرسول ، وقال لهم : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد ، وما اتبعتم أمره ، فاتبعوه ، وأعينوه ترشدوا .

فلما مات أبو طالب اجترأت قريش على الرسول ، ونالت منه ما لم تكن تناله ، أو تقدر عليه .

وقد روى أن سفيها من سفهاء قريش ألقى على الرسول التراب بعد موت أبي طالب ، فرجع الرسول إلى بيته ، فأتت إحدى بناته ، ومسحت عن وجهه التراب ، فجعل الرسول يقول لها : (أى بنية لا تبكين ، فإن الله مانع أباك) ، ويقول فيما بين ذلك : (ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب ، ثم شرعوا) .

أما (خديجة) فقد كانت حماها وجاهها الردء المكين للرسول منذ تزوجها قبل أن يبعث بخمسة عشر عاماً ، فلما جاءه الوحى وجد منها العضد القوى ، والنصير المخلص الأمين ، والمواسى المعين فى أحلك المواقف .

روى الشعبى عن مسروق عن عائشة ، قالت : كان النبى – صلى الله عليه وسلم – إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء .

قالت : فغرت يوماً ، فقلت ، ما أكثر ما تذكرها ، حمراء الشدقين ، قد أبدلك الله خيراً منها ، فقال : (ما أبدلنى الله خيراً منها ، وقد آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وآستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء)[1] .

وقال — صلى الله عليه وسلم — : (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية إمرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) .

قال العلماء : والقدر المشترك بين الثلاث النسوة أن كلا منهن كفلت نبياً مرسلا ، وأحسنت صحبته فى كفالتها ، وصدقته .

فآسية ربت موسى ، وصدقته ، وأحسنت إليه ، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة ، وأعظمها ، وصدقته حين أرسل ، وخديجة رغبت فى الزواج من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وبذلت فى ذلك أموالها ، وصدقته حين نزل عليه الوحى من الله عز وجل

لا غرو أن يحزن الرسول أشد الحزن على ناصريه المدافعين

---

(١) ابن كثير . البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٨ — ١٢٩ طبعة السعادة

• رواه مسلم .

عنه ، ويلزم بيته ، ويقل الخروج منه ، ويسمى العام الذى توفيا فيه عام الحزن .

والحزن على وفاة عزيز ، بل البكاء على فراقه لا يتعارض مع الإيمان ، بل والإيمان الراسخ الوثيق .

وقد ورد فى الحديث الصحيح : أن العين تدمع ، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون .

قال هذا — صلى الله عليه وسلم — حين بكى على موت ابنه إبراهيم فرأى من بعض الصحابة لوناً من ألوان التعجب من بكائه .

والرسول بشر قبل كل شئ . فلابد أن يطوف بنفسه ما يطوف بنفوس البشر مما لا يتعارض مع الإيمان ، وربما كان حزنه على عمه وزوجه من قبيل الوفاء ، وهو خليق بأن يفى أكمل الوفاء وأجمله لمن أحسنوا صحبته ، وأيدوا دعوته .

وربما كان حزنه مظهراً لرقة قلبه ، ونبيل عواطفه ، وقد كان — صلى الله عليه وسلم — أرق الناس قلباً .

روى أنه لما مر (بالأبواء) فى عمرة الحديبية ، وكانت أمه مدفونة هناك قال : (إن الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه) فأتاه فأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له فى ذلك ،

فقال : (أدركتني رحمتها فبكيت)[1] .

ولم يشك رسول الله لحظة واحدة فى أن الله سبحانه ناصره ومانعه ، ودافع عنه ، ولكنه – صلى الله عليه وسلم – كان يدرك تمام الإدراك أن الأمور مرهونة بأسبابها ، وأنه فقد بوفاة أبى طالب وخديجة ركنين من أقوى الأركان التى يستند إليها ، وهو يمضى فى تبليغ دعوته .

وقد التمس الرسول بعد فقد هذين النصيرين النصرة ، ولكنه لم يجد بعدهما من البشر نصيراً .

لما بلغ (أبا لهب) ما يعانيه ابن أخيه جاءه ، وقال له : يا محمد . امض لما أردت ، وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه . لا . واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وأثنت قريش فى أول الأمر على صنيع أبى لهب ، وهابوه ، ولكن جماعة من شياطينهم احتالوا على أبى لهب حتى أوغروا صدره على الرسول ، فمنع عنه حمايته ، وقال له : والله . لا برحت لك عدوا أبداً ، . . واشتد عليه هو وسائر قريش .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٩٨ وقد رواه مسلم بصيغة أخرى . (استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى) وكذلك رواه ابن حنبل وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

وكان طبيعيا — بعد ذلك ، وقد ضاقت به مكة — أن يلتمس النصرة فى غيرها ، فكانت رحلته — صلى الله عليه وسلم — إلى (الطائف) آملا أن يجد فى أهله من يعينه على المضى فى دعوته ، فأقام هناك عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، ولكن الله لم يشرح صدر أحد منهم للاسلام ، وخافوا على أبنائهم أن يستجيبوا لدعوته فطلبوا إليه أن يخرج من بلدهم ، وأغروا به سفهاءهم ، فلقى منهم الرسول أذى شديداً ، فرجع إلى مكة ، وهو محزون ، بل أشد الحزن ، لأنه حزن على حزن :

ولقد يطاق الهم غير مضاعف   فإذا تضاعف كان غير مطاق

وفى مقامه بالطائف ، وبعد أن يئس من استجابة أهلها له دعا بدعائه البليغ العميق ، المشهور :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1]

---

(١) أورده ابن إسحق ، ورواه الطبرانى فى كتاب الدعاء .

وأشد ما يطالعنا به هذا الدعاء هو الحالة النفسية التى كان يعانى منها الرسول فى تلك اللحظات ، فليس أقسى على النفس الكريمة من أن تشعر (بهوانها على الناس) وأنها من (المستضعفين) ، ولكن الثقة فى الله غالبة ، فليس ما يحزنها أشد الحزن ، هوانها ولا استضعافها وإنما هو الخوف أن يكون بالله غضب عليها وهو — صلى الله عليه وسلم — على يقين أن الله غير غاضب عليه ، فهو لا يبالى بما يلقاه. من الناس مهما اشتدت قسوتهم ، وبلغ عتوهم وجبروتهم .

وكان ما لقيه رسول الله من ثقيف أشد مما لقيه فيما بعد يوم أحد ، فلا غرو أن يغتم الرسول لذلك ، وقد ضاقت به الطائف ، كما ضاقت به مكة .

أيام وشهور بالغة السوء والقسوة عاشها الرسول — صلى الله عليه وسلم — منذ توفى عمه أبو طالب وزوجه خديجة ، ولكن رحمة الله وعافيته أوسع له — كما قال فى دعائه .

وكأنما أرادت السماء أن تختم هذه الحوازب بتدبير تعود به الدعوة إلى جدتها ، وكأنما أرادت أن تجدد البرهان على صدق هذه الدعوة ، وأن تشرح صدر الرسول ، وتؤكد له أنها ما تخلت عنه ، فكانت معجزة الاسراء والمعراج .

من كذب عليّ ..

من الأحاديث المشهورة قول النبي – صلى الله عليه وسلم – من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النــار .

وقد اتفق على روايته البخارى ومسلم ، وقال النووى فى شرحه لصحيح مسلم : إنه حديث عظيم ، فى نهاية الصحة ، وقد روى عن أكثر من ستين صحابيا ، منهم العشرة المشهود لهم بالجنة ، ولم يجتمع لحديث آخر ما اجتمع لهذا الحديث من روايته عن أكثر من ستين صحابيا ، ومن اجتماع العشرة المبشرين بالجنة على روايته .

وذكر عن بعض المحدثين أن مائتين من الصحابة رووه ، وفى كتب الحديث أحاديث أخرى فى معناه .

وفى هذه الأحاديث وعيد شديد لمن نسب إلى رسول الله ما لم يثبت أنه قاله ، ولا يقتصر الوعيد على الواضع الأول للحديث ، بل يشمل – أيضاً – من يروى الحديث وهو يعلم أنه غير صحيح .

وفى هذا جاء الحديث الذى رواه مسلم عن رواته ، عن سمرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين :

ومن هنا قال النووى : يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعا أو غلب على ظنه وضعه ، فمن روى حديثا علم أو ظن وضعه ولم يبين حال روايته وضعفه فهو داخل فى هذا الوعيد ، مندرج فى جملة الكاذبين على رسول الله — صلى الله عليه وسلم[1] —

وأكثر ما يستعان بهذه الأحاديث ، الموضوعة أو الضعيفة فى الترغيب والترهيب ، ومن الكلام المشهور : الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال . وهذا كلام ينبغى ألا يصح ، فيكفى أن يحكم بأن الحديث ضعيف حتى يطرح ، ولا يعمل به .

وقد أجمع المسلمون الذين يعتد بهم فى الاجماع على أن وضع الحديث على رسول الله سواء كان فى الأحكام أو فى الترغيب والترهيب حرام من أكبر الكبائر ، وأقبح القبائح ، ولم يشذ عن ذلك إلا الكرامية ، وهم فرقة مبتدعة ، فقد زعموا باطلا أنه يجوز وضع الحديث فى الترغيب والترهيب ، وتابعهم على ذلك كثيرون من الجهلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الزهد ، أو ينسبهم جهلة مثلهم[2] .

إن الأحاديث الصحيحة فى الحث على فضائل الأعمال ، وفى

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ ١ ص ٧١ .
(٢) ذكر ذلك كله النووى فى هذا الموضع .

التنفير من رذائلها كثيرة فلا حاجة بالواعظ أو الخطيب أو المؤلف إلى الاستعانة بالأحاديث الضعيفة .

وخطر رواية هذه الأحاديث الضعيفة من وجهين ، فمن جهة يثبت فى أذهان العامة وأشباه العامة أموراً ليست فى شريعتنا ، وهذا شر مستطير ، ومن جهة أخرى ربما حمل هذا الصنيع بعض الناس على السخرية مما يقرأ أو يسمع .

وقد ذكر مسلم فى صحيحه أن إياس بن معاوية قال لسفيان بن حسين : احفظ على ما أقول لك . إياك والشناعة فى الحديث فإنه قلما حملها أحد إلا ذل فى نفسه ، وكذب فى حديثه .

ويؤيد ذلك الحديث الصحيح الذى رواه مسلم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع .

ومن العجيب أن السبيل ممهدة أمام من يخاطب الجماهير بأحاديث رسول الله ، فلا يتكلف شططاً ، ولا يجد أى عنت حين يرغب أن يستوثق من صحة حديث ، فالكتب المؤلفة فى الأحاديث الموضوعة كثيرة ، وقريبة التناول ، وكذلك الكتب التى عنيت بتخريج أحاديث وردت فى كتب أخرى .

فمثلا : الحافظ العراقى خرج أحاديث (إحياء علوم الدين) للغزالى ، وهذا الكتاب مع ما فيه من علم غزير ، ومن مادة وفيرة

فى الوعظ والإرشاد ، وهو معتمد كثيرين ممن يسلكون هذه السبيل ، مع ذلك – وبكل أسف – أورد أحاديث كثيرة بين موضوعة وضعيفة ، ولا ينبغى أبدا أن يهمل الذى يطالعه ما كتبه الحافظ العراقى فى تخريج الأحاديث التى ملأت كتاب الأحياء .

ومن الذين عنوا بتخريج الأحاديث التى وردت فى بعض الكتب العلامة الحافظ بن حجر ، فمن فضائله أنه خرج الأحاديث التى وردت فى تفسير الكشاف للزمخشرى ، والذى يطالع كتاب ابن حجر يعجب كيف فات كل ذلك على هذا العالم الكبير جار الله ، ويتأكد عنده أن من الخطأ الاعتماد على رواية عالم – ولو كان الزمخشرى – لم يعرف بأنه من رجال الحديث .

وللسيوطى كتاب (مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا) ، وله الجامع الكبير والجامع الصغير ، وفيهما الكفاية ، وفوق الكفاية فى معرفة درجة الأحاديث من الصحة .

ولقد يروع المؤمن أن يظل دهراً طويلا يسمع حديثاً ، بلغ من الشهرة كل مبلغ ثم يتبين له بأخرة أنه حديث غير صحيح .

ولقد كنت أعجب من هذا الحديث ، وأقول فى نفسى كيف يصح هذا عن النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى رأيت العلماء الباحثين يحكمون عليه بالوضع .

أما الحديث فهو : جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : أن امرأتي لا تدفع يد لامس . قال : طلقها . قال : إني أحبها . قال : استمتع بها .

وأما العلماء الذين حكموا عليه بالوضع ، فمنهم الإمام ابن الجوزى ، فقد قال : لا أصل لهذا الحديث ، وذكره في الموضوعات

وكذلك طالما سمعت وقرأت أحاديث وردت في فضائل سور القرآن ، بل ذكرتها أكثر التفاسير ثم تبين لي – كما ذكر العلماء – أن أكثر هذه الأحاديث غير صحيح .

ومن الأحاديث المشهورة ، وهو غير صحيح ما نسب للنبي من قوله : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) .

قال أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نصر – رحمهما الله تعالى – أنه غير ثابت[1] .

قال ابن حنبل : لا يصح ، ولا يثبت إسناده ، وذكر النووى أنه غير صحيح[2] .

ومن هذه الأحاديث ، الحديث المشهور : (الصلاة عمود الدين) ذكر النووى أنه حديث منكر ، ورواه البيهقي بسند ضعيف ، وقال العراقي ، أنه ضعيف .

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٢٢٣

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٢

والحديث القدسي المشهور : (يا عبدى مرضت فلم تعدنى ، وجعت فلم تطعمنى ، وعطشت فلم تسقنى) .

قال السيد رشيد رضا فى تفسيره (المنار) عند تفسيره لقوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .

قال السيد رشيد بعد أن ذكر أن معنى (إلا لنعلم) إلا ليعلم عبادى المؤمنون بإعلامى إياهم ، قال : وعلى هذا الأسلوب جاء ما روى فى الحديث القدسى ، (وذكر الحديث) خرجوه على أن المراد مرض عبادى الفقراء الذين هم عيال الله فلم تعدهم ..إلخ نعم إن الرواية غير صحيحة ، ولكن لم يفهم أحد منها أنها على ظاهرها ، لقطع العقل بأن هذا محال)[1] .

ومن ذلك حديث : (نية المرء خير من عمله) ، وقد كنت وقفت كثيراً عند معنى هذا الحديث ، حتى رأيته فى كتاب الإحياء للغزالى ، ورأيت ما أطال به فى شرح هذا الحديث ومحاولته بطرق مختلفة أن يجد له وجهاً صحيحاً ، ثم نظرت فى هامشه لأجد الحافظ العراقى يقول : (أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن سعد ، ومن حديث النواس بن سمعان ، وكلاهما ضعيف) .

---

(١) جـ ٢ ص ٨

ولم يقع منى شرح الغزالى موقعاً مقبولا ، ولكن قبلت بكل ارتياح كلام الحافظ العراقى .

وقد يقول قائل : إن معانى بعض الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة صحيحة . فما الضير من روايتها ؟

ونقول له : إن مجرد نسبة قول إلى الرسول لم يقله خطأ ، وخطر ، وكذب .

وإن حب المسلم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورغبته الصادقة فى أن يهتدى بهديه ، ويسير على سنته ، وخشيته من الله تعالى كل ذلك يمنعه أن يفترى الكذب على رسول الله أو أن ينسب إليه ما يعلم يقيناً أنه لم يقله .

وواجب العلماء والدعاة أن يكونوا على بينة من دينهم فى كل ما يعالج القضايا الإسلامية وفى كل ما يلقى على الناس من مواعظ وتوجيهات . .

والله يهدينا جميعاً سواء السبيل .

شاعر الرسول فى محنته

كعب بن مالك

نحن الآن فى السنة التاسعة من الهجرة ، أو على وجه التحديد فى شهر رمضان من تلك السنة ، وقد رجع النبي — صلى الله عليه وسلم — فى فى ثلاثين ألفاً من أصحابه إلى المدينة المنورة بعد غيبة استغرقت خمسين يوماً منذ توجه عليه السلام إلى (تبوك) ليغزو الروم فى بلاد الشام ، وكان ذلك فى أواخر (رجب) إلى أن عاد ظافراً فى أوائل رمضان .

وهاهى ذى مدينة الرسول تموج بالبشر والفرح ، ولا يزال النشيد الذى استقبل به المسلمون خارج المدينة ، والذى هزج به النساء والصبيان والولائد ، لايزال هذا النشيد يملأ الأسماع :

طلع البــدر علينــا من ثنيــات الوداع
وجب الشكر علينــا مادعــا للــه داع

وقد كان يوماً عصيباً شاقاً ذلك اليوم الذى بدأ فيه النبي يتجهز لغزوة تبوك ، فقد كان المسلمون فى جهد شديد ، وبلاء عظيم . كانوا فى عسرة من الزاد حتى تزودوا التمر المدود والشعير المسوس ، وبلغت بهم الشدة إلى أن اقتسم الثمرة اثنان ، وكانوا فى عسرة من الماء حتى نحروا الإبل ، واعتصروا فروثها ليشربوا مابها من ماء ، وفى عسرة

من المركب حتى كان العشرة يتعقبون بعيراً واحداً ، وكانوا فى شدة زمان من الحر الشديد ، والجدب والقحط ، ولذلك سمى الله سبحانه هذه اللحظة فى حياة المسلمين (ساعة العسرة) ، وأعلن أن بعض القلوب المؤمنة ، الصادقة الإيمان كادت تزيغ فتميل إلى التخلف عن الجهاد ، ولكن الله ربط عليها ، وثبتها فاتبعت الرسول فرضى عنها ، قال تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم »[1] .

ولكن فتى جلداً ، قوياً أيداً . فى نعمة ويسر ، شهد له الرسول بأنه يحسن صفة الحرب ، وبأنه دافع عن أعراض المسلمين فأحسن الدفاع وقد أسلمت بعض القبائل من بيتين قالها ، فقد روى أنه بينما كان الرسول فى سفر طلب إليه أن يحدو ، فقال :

قضينا من تهامة كل حــق وخيبر ثم أجمعنا السيوفا
فخبرها ، ولو نطقته لقالت قواطعهن دوساً أوثقيفاً

فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده هى أشد عليهم من رشق النبل ، ويقال أن دوساً أسلمت فرقا من هذه الكلمة .

وقد كان هذا الشاعر ثالث ثلاثة من الشعراء وقفوا لشعراء قريش ،

---

(١) سورة التوبة الآية : ١١٧

وناضلوا دون الدعوة ، وبلغوا من ذلك ماحمده لهم الرسول والمؤمنون وكان جيد الشعر حتى قال بعض المتذوقين للشعر : أن أشجع بيت وصف به رجل قومه قول هذا الشاعر الصحابي الجليل .

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا يوماً ، ونلحقها إذا لم تلحق

وقد شهد هذا الفتى جميع غزوات الرسول ماعدا (بدراً) ، وقال عن نفسه : لقد شهدت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها ، كما حدث عن نفسه — أيضاً — بأنه لم يكن فى يوم من الأيام أقوى ولا أيسر منه حين هم النبي بغزوة تبوك .

هذا الفتى الجلد الموسر يرى رهطاً من المسلمين الصادقين يذهبون إلى الرسول يطلبون إليه أن يهيء لهم رواحل يغزون عليها فيعتذر الرسول بأنه لا يجد ما يحملهم عليه ، فيعودون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ماينفقون ، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة التوبة وهى تتحدث عن الذين تخلفوا عن رسول الله والذين أبدوا بعض الأعذار : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا

وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون »[1] .

ويرى هذا الشاعر عثمان بن عفان — رضى الله عنه — يقدم للرسول ألف بعير ، وسبعين فرساً ، وعشر آلاف دينار ، فيقبلها النبى فى حجره ، ويقول : ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم .

ويرى قوماً من المنافقين حين تأهب الرسول للخروج يقولون : لاتنفروا فى الحر ، فينزل قوله تعالى : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون »[2] .

يرى كل هذا ، ولكنه — مع صحبته وصدق إيمانه — يتردد فى الخروج مع جيش المسلمين ، ويظل بين عزيمة وتراخ حتى يسرع الناس ، فيهم أن يدركهم ، ولكنه لايفعل ، ويتلفت حواليه فلا يرى متخلفاً ألا رجلا متهماً بالنفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون غير أنه يرى تسعة من المسلمين منهم إثنان شهدا (بدراً) قد تخلفوا ، فيسرى ذلك عن نفسه بعض الشيء .

ويضرب بعض الصحابة المثل الرفيعة فى حب الرسول ، والجهاد ،

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٩١ ، ٩٢

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٨١ ، ٨٢

ولكن الله لايشرح صدره للحاق بالمجاهدين لأمر هو بالغه ، فلا شك أنه علم بقصة ذلك الصحابي الجليل الذى بلغ بستانه ، وكانت له إمرأة حسناء فرشت له فى الظل ، وبسطت إليه الحصيرة ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر ، وقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الضح[1] والريح . . . . . . ماهذا بخير ! ! !

فقام ، ورحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ولحق بالغزاة المجاهدين . . . ولكن هذه القصة الرائعة لم تشد — أيضاً — من عزمه ، ولم تقض — وكانت حرية — على تردده ، فيظل فى المدينة ، حتى يرجع الجيش ، فيتقدم إلى رسول الله ليسلم عليه ، فيبتسم له النبي تبسم المغضب ، ويؤنبه على تخلفه ، ولكن الرجل — وقد رأى أكثر من ثمانين رجلا يعتذرون للرسول ، ويحلفون له فيقبل الرسول علانيتهم ، ويعفو عنهم — يأبى أن ينتحل المعاذير ، أو يلجأ إلى الجدل مع قدرته عليه ويعلنها للرسول بأنه ما كان صاحب عذر ، ويرجو عقبى الصدق عند الله ، وقد نهج نهجه فى هذا صحابيان آخران هما مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، وكلهم من الأنصار ، وأولئك النفر الثلاثة هم (الثلاثة الذين خلفوا) ، أما السبعة الآخرون من المؤمنين المتخلفين فقد اشتد بهم الغم والحزن ، فأوثقوا أنفسهم فى سوارى مسجد الرسول وأبوا أن يفك وثاقهم أحد غير محمد — صلى الله عليه وسلم — ، ولكن

(١) الضح : بكسر الضاد : الشمس ، وضوءها . اه . قاموس .

لم يقدم من ذات نفسه على حل وثاقهم ، وانتظر بهم حتى نزل قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم »[1] فيحل النبي وثاقهم، ويعفو عنهم .

ويرجىء أولئك النفر الثلاثة ، وينهى الناس عن التكلم معهم ، فيجتنبهم الناس ، حتى أقرب المقربين إليهم ، فيجلس الرجلان في بيتيهما يبكيان ، ويبقى صاحبنا الشاعر متردداً بين بيته والمسجد ، ويشهد الصلاة ، ويطوف في الأسواق ، ولكن أحداً لا يكلمه ، ويحضر الصلاة مع الرسول ، ويظل يسارقه النظر ، فيعرض الرسول عنه ، ويطمع في ابن عم له فيتسلق عليه الجدار فيسلم عليه ، ولكنه لا يظفر برد عليه .

ويقبل شهر شوال فيرتجف شاعر الرسول أشد الارتجاف، ويضطرب غاية الاضطراب ، وتضيق عليه الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه . ذلك أن سورة بأكملها تنزل في شأن غزوة تبوك ، ويسمعها ، ويقرؤها فإذا هي ذات طابع خاص ، فهي لم تبدأ كغيرها من سورة القرآن بالبسملة لما فيها من وعيد شديد ، ولما اشتملت عليه آياتها من صرامة وتخويف ، فهي تهدد الكافرين ، وتفضح المنافقين وتنال بعض آياتها المؤمنين ، وتشتهر السورة بين مجتمع المدينة باسم

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٢

(المبعثرة) لأنها كشفت وبعثرت نوايا المنافقين ، وباسم (الفاضحة) وأخيراً تسمى سورة (التوبة) .

ويبتدىء صاحبنا يتلو السورة فإذا أولها إعلان لبراءة الله من الكافرين « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » ولا يكاد يمضى فى قراءتها قليلا حتى يجدها تمجد الجهاد والمجاهدين : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم »[1].

ويكاد ينخلع قلبه من بين جنبيه حين يمر بهذه الآية التى يدرك شدة وقعها المؤمنون الفاقهون : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين »[2] .

حقيقة ، هو يحب الله ورسوله ، وهما أحب إليه مما سواهما ، وحقيقة ، هو لم يتخلف لإيثار شئ من هذه الشاغلات ، ولكنه يخشى أن يكون الشيطان تدسس إلى قلبه فى بعض اللحظات ، وللشيطان

---

(١) الآيات : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ التوبة

(٢) الآية : ٢٤

دبيب خفي ، وهمس غامض ، فيكون من الفاسقين ، ويكون بمعرض لهذا التهديد العنيف .

ويشتد حزنه وألمه حين يصل إلى قوله تعالى : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئاً »[1]، وإلى قوله سبحانه يوبخ المتخلفين ، ويبين سوء طويتهم : « لو كان عرضاً قريباً وسفرا قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون »[2]

ولكن الصحابي الجليل مع هذه الشدة التي يعانيها ، وهذا الضيق النفسي الذي يعيش فيه يعرف لدينه حقه ، ولرسوله منزلته من نفسه . وندعه يحدثنا عن نفسه فيقول :

بينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدموا بالطعام يبيعونه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ، قال : فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءني فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك . قال: فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتياممت بها التنور فسجرتها فيه .

---

(١) الآية ٣٩ التوبة

(٢) الآية : ٤٢ التوبة

ويزداد البلاء شدة بعد الأربعين ، فيأتيه أمر من الرسول بأن يعتزل امرأته ، كما يجئ هذا الأمر لصاحبيه ، ويمتثلون الأمر ، ويظلون يعانون من هذا البلاء إلى أن تكمل المدة خمسين يوماً ، وهى نفس المدة التى قضاها المسلمون المجاهدون خارج المدينة ، فينزل قول الله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » [1] .

حينئذ يعود الفرح إلى المدينة ، وتنطلق البشرى نحو النفر التائبين ، ويقف أحد الصحابة على الجبل ليعلنها ، ويقبل صاحبنا إلى رسول الله فيتلقاه الناس فوجاً فوجاً يهنئونه ، يقولون : لتهنئك توبة الله عليك ، ويسلم على رسول الله ، ووجهه يبرق من السرور ، وجه رسول الله ، ثم يقول الرسول : أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك .

قال شاعرنا : قلت : يارسول الله إن الله إنما نجانى بالصدق ، وأن من توبتى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت .

قال : فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى

---

(١٠) سورة التوبة الآيتان : ١١٧ ، ١١٨

يومى هذا أحسن مما أبلانى الله به ، والله ، ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى .

. . .

وهكذا عاش شاعر رسول الله (كعب بن مالك) الأنصارى فى هذه المحنة القاسية ، وخرج منها نقياً طاهراً ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله .

مولد الرسول فى المدائح النبوية

كانت الأشعار التى قيلت فى مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو فى جهاد المشركين ، والرد على شعرائهم ، على عهد حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وأبى سفيان بن الحارث ، وأضرابهم تزخر بالحديث عن الإسلام ، وعن القرآن ، وهداية البشر ، وقتال الكفار ، وتتضمن الإقرار بوحدانية الله وطاعته ، والثناء عليه سبحانه وتعالى ، والحديث عن الجهاد ، كما قال كعب بن مالك حين اعتزم رسول الله السير إلى الطائف :

نطيع نبينـــا ونطيع ربــا   هو الرحمن كان بنا رءوفاً
فإن تلقــوا إلينا السلم نقبــل   ونجعلكم لنا عضــداً وريفاً
وإن تأبــوا نجاهدكم ونصبر   ولا يك أمرنا رعشاً ضعيفاً[1]

كما كانت صورة من المديح الجاهلى ، فهى حافلة بوصف الرسول بما كان يصف به الشعراء السابقون للإسلام ممدوحيهم من الجود

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب . الرعش : الجبان .

والشجاعة والوفاء ، وكرم الأصل ، وطيب العنصر ، كما قال عبد الله ابن الزبعرى بعد إسلامه يمدح الرسول :

قرم علا بنيانه من هاشم فرع تمكن فى الذرى وأروم[1]

والنبي مهند من سيوف الله ، وهو خير من حملته ناقة على أوصالها وقد عمت فضائله كل العباد ، كما عم البرية ضوء الشمس والقمر ، وهو ركن معتمد ، وعصمة لائذ ، وجار مجاور ، وهو — كما قالت قتيلة بنت الحارث[2] — نجل كريمة فى قومها ، والفحل فحل معرق ، وذكره كما قال الأعشى — أغار فى البلاد وأنجد . . . . وهكذا .

فلما صارت المدائح النبوية باباً واسعاً فى الأدب العربى انتهج شعراء المديح مناهج جديدة ، فزادوا على الأوصاف السابقة نظم السيرة النبوية بحيث نكاد نرى لكل صغيرة وكبيرة حدثت فى عهد الرسول صداها فى هذه المدائح .

وبعض المدائح تسجيل لحياة الرسول منذ ولادته إلى أن انتقل

---

(١) القرم : السيد . الذرى : جمع ذروة ، وهى أعلى الشئ . أروم : جمع أرومة ، وهى الأصل .

(٢) ما جاء فى هذه القصيدة من أوصاف للرسول صحيح ، ومعترف به من كل منصف ، وإن كانت القصة غير صحيحة لأنها من رواية هشام ابن الكلبى . وفيه يقول الإمام أحمد : إنما كان صاحب سمر ونسب ، ما ظننت أن أحداً يحدث عنه ، وهو معدود فى الضعفاء .

إلى الرفيق الأعلى ، حتى لو نثرتها لم تعد أن نحصل على فصل أو فصول من كتب السيرة .

وكان مولد الرسول — صلى الله عليه وسلم — من الموضوعات التى عنى بها شعراء المديح ، فقد اعتبروا ذلك اليوم — وهم محقون — أكثر الأيام بركة وخيراً فى تاريخ البشرية ، فكل مكرمة نالتها الإنسانية ، أو ستنالها عن طريق الإسلام إنما مرجعها ومنتهاها إلى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، الموافق العشرين من شهر أبريل عام ٥٧١ م[1].

وقد تفتحت قرائح الشعراء عن صور من الحقيقة ، ومن الخيال ، أبرزوا فيها هذا اليوم المبارك ، فوصفوه بما يستحق من سنى الأوصاف وجلوه فى معرض جميل رائع يليق بسيد المرسلين .

وأول ما يلفت النظر فى تمجيد يوم الميلاد عند هؤلاء المداح هو الحديث عن الإرهاصات التى صحبت مولد النبى ، والتى جاءت فى قصة سبقت مبعثه — صلى الله عليه وسلم — ، وقد روتها كتب الأدب ، وألمت بها كتب السيرة ، وهذه صورة مما ورد لهذه القصة :

(جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس . قال : لما كان

---

(١) اتفق الثقات من الرواة على أن ولادة النبى كانت فى يوم الاثنين ، واشتهر أنها كانت فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، ولكن بعض الباحثين من المحدثين حقق أن الولادة كانت فى اليوم التاسع من هذا الشهر (انظر مجلة الأزهر ، عدد ربيع الأول سنة ١٣٦٧ هـ ص ٢٢٩) .

ليلة ولد النبي — صلى الله عليه ولأسلم — ارتج إيوان كسرى ، فسقطت منه أربع عشرة شرفة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن (بحيرة ساوة) غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن (وادى السماوة) انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب (طبرية) أن الماء لم يجر تلك الليلة فى (بحيرة طبرية) ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن (بيوت النيران) خمدت تلك الليلة ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره ، وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر ، فقال الموبذان : أيها الملك ، إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى ، قال له : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد اقتحمت دجلة ، وانتشرت فى بلادنا . قال : رأيت عظيما ، فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى فيها ، ولا فى تأويلها شئ ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحدثان[1] . . . فبعث إليه (عبد المسيح بن بقيلة الغسانى) فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال له : أيها الملك والله ما عندى فيها ، ولا فى تأويلها شئ ، ولكن جهزنى إلى خال لى بالشام يقال له : (سطيح) ، قال : جهزوه ، فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه ، وكلمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

(١) الحدثان — بكسر الحاء — نوب الدهر ، كحوادثه

أصم أم يسمع غطريف اليمن | يا فاصل الخطة أعيت من ومن
أتاك شيخ الحي من آل سنن | أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم يهوى للوثن | لا يرهب الرعد، ولا ريب الزمن

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيخ ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد ، يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وفاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قال أبياتا من الشعر .

فرجع عبد المسيح إلى كسرى وأخبره بما قال سطيح فغمه ذلك ، ثم تعزى فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان ، فهلكوا كلهم فى أربعين سنة)[1] .

وقد ردد أصحاب المدائح هذه الظواهر فى أشعارهم ، يشير أحدهم إلى بعضها ، ويستقصى آخر . ومن أوائل من أشاروا إلى بعض ذلك الإمام جمال الدين الصرصرى[2] العراقى الضرير المتوفى سنة ٦٥٦ ﻫ ،

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٧٢ — ٢٧٤ . ط سعيد العريان .

(٢) اشتهر عند مؤرخى الأدب . أن أول من فتح باب المدائح النبوية بعد أن سكت الشعراء زمنا طويلا ، هو الإمام البوصيرى ، وهذا خطأ ؛ لأن الصرصرى سبق البوصيرى إذ توفى الأخير سنة ٦٧٦ ﻫ وسبقهما الششخ عبد الرحيم البرعى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى .

وقد توفى شهيداً ، قتله التتر فى بلده (صرصر) . حيث قال يذكر ميلاد الرسول :

وطاف به الأملاك تمنع مهـــده   أذى كل شيطان يخاف اقتحامه
وكسرى أنو شروان زلزل قصره   وشق ، وتاج الملك فك نظامه
ونار مجوس الفرس أطفىء وقدها   ولم يك فى الإعصار يخبو ضرامه

والشعر ضعيف ، ولـكن الذى يعنينا هو سبق الإشارة فى الشعر إلى بعض الإرهاصات التى صحبت المولد .

ولـكن الذى أجاد تسجيل هذه الأحداث هو الإمام البوصيرى ، فقد ذكرها فى همزيته ، فقال :

وتداعى ايوان كسرى ولولا   آية منك ما تداعى البنـاء
وغدا كل بيت نار وفيـــه   كربة من خمـودهـا وبـلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان   لنيـرانهم بهـــا أطفـــاء

كما ألم بنفس المعانى فى قصيدته (البردة) ، فقال :

وبات إيوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه والنهر ساهى العين من سـدم
وساء (ساوة) أن غاضت بحيرتـها
ورد واردها بالغيظ حين ظمى

كأن بالنـار ما بالمـاء من بلل
حزناً ، وبالماء ما بالنار من ضرم

ونلاحظ أنه صرح هنا باسم البحيرة التى غاض ماؤها ، وهى بحيرة (ساوة) ، وقد وردت فى القصة التى أثبتها آنفاً ، ومنها يفهم أن (ساوة) فى بلاد اليمن ، لأن الذى كتب بشأنها إنما هو صاحب اليمن ، ولكن صاحب المولد المشهور بمولد (البرزنجى) حددها تحديداً آخر ، فقال : (وغاضت بحيرة ساوة ، وكانت بين همذان وقم من البلاد (العجمية) .

كما حدد وادى السماوة فى قوله : (وفاض ماء سماوة ، وهى مفازة فى فلاة

والمشهور أن بحيرة ساوة هى التى غاضت ، وقد تردد ذلك فى أشعار المدائح النبوية ، ولكن القاضى (عياضاً) ذكر فى كتابه (الشفا) أن البحيرة التى غاضت هى بحيرة طبرية[1] .

وقد علق الشهاب الخفاجى على قول عياض ، فقال : (المعروف بالفيض — كما فى البرهان — بحيره ساوة) ثم قال : (والحق أنها بحيرة طبرية) ، وقد سبق فى القصة أن البحيرتين كلتيهما غاضتا .

وساوة فى بلاد فارس ، كما ذكر صاحب المولد ، أو فى اليمن كما

---

(١) ج ٣ ص ٣١٤ .

يفهم من القصة . أما طبرية فهى بلدة بالشام معروفة ، بينها وبين القدس مرحلتان ، وبحيرتها عظيمة .

وقد تبع أحمد شوقى الإمام البوصيرى فى الإشارة إلى تصدع إيوان كسرى ، فقال فى نهج البردة :

سرت بشائر بالهادى ومولده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم

تخطفت مهج الطاغين من عرب
وطيرت أنفس الباغين من عجم

راعت لها شرف الإيوان فانصدعت
من صدمة الحق لا من صدمة القدم

وكرر ذلك مرة أخرى فى نفس القصيدة فقال :

وخل كسرى وأيواناً يدل به
هوى على أثر النيران والأيم[1]

وقد روى حديث الإرهاصات (البيهقى) و (ابن أبى الدنيا) و (ابن السبكى) كما شرح فى شرح الشفا ، ومعنى هذا أنه لم يرد فى الكتب الصحاح ، ومن هنا تطرق الشك إلى هذه القصة .

وأول ما تمسك به الشاكون فيها أن القصة تحمل فى طياتها بعض

---

(١) الأيم : الدخان

المتناقضات ، فهى تقول : أن أربعة عشر ملكاً من ملوك الفرس هلكوا فى أربعين سنة ، ذكر ذلك غير واحد منهم صاحب الشفاء ، وقد جاء فى شرحه أن النبى — صلى الله عليه وسلم — ولد فى عهد كسرى أنو شروان ، وكتب كتابه المشهور إلى كسرى أبرويز ابن هرمز بن أنو شروان .

وجاء فى كتاب (الكامل) لابن الأثير : (ولد رسول الله سنة إثنتين وأربعين من سلطان كسرى أنو شروان ، وبعث لإثنتين وعشرين من ملك كسرى أبرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنو شروان ، وهاجر لإثنتين وثلاثين من ملك أبرويز)[1] .

فملوك الفرس فى هذه الفترة ثلاثة فقط .

وسواء صحت القصة أم لم تصح فإن الذى حدث فعلا أن ملك الأكاسرة كله ذهب بعد قليل من ظهور الإسلام ، وأن الأيوان لم تسقط منه أربع عشرة شرقة فحسب ، بل أصبح كله كما قال عنه البحترى فى القرن الثالث الهجرى :

لو تراه علمت أن الليالى ... جعلت فيه مأتماً بعد عرس

وكان فيما ذكر من طريف الحكايات أن رجلا من (غامد) كانت له غنم يرعاها ، فإذا جاءت الظهيرة لجأ بها إلى بقايا الإيوان ،

---

(١) جـ ١ ص ١٨٥

فتقيل فيه ، فربما صعدت بعض الأغنام ، فنامت فى مكان جلوس كسرى .

وذات يوم جلس هذا الرجل مع صاحب له يتذاكران أحداث الأيام ، وتقلبات الدهور ، فقال صاحبه : ومما رأينا من العجائب صعود غنيمات الغامدى فى سرير كسرى .

وكما أشار شوقى إلى تصدع إيوان كسرى عند ولادة الرسول ، أشار إلى خمود نار الفرس ، وإلى غيض الماء فقال :

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصـــداء
والنــار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها ، وغاض الماء
والآى تترى ، والخوارق جمة ... جبريل رواح بهـا غـــداء[1]

ومن هنا نرى أن (شوقى) تبع البوصيرى فى كل هذه الأمور التى ظهرت ، أو قيل أنها ظهرت عند مولد الرسول ، ولا نرى وجها لقول بعض الباحثين أن (شوقى كان أبعد نظراً من البوصيرى فى نقد الأخبار والآثار) .

---

(١) فسر المعلق على الشوقيات كلمة (تترى) بكلمة (تتوالى) ظناً منه أنها فعل ، والحقيقة أنها اسم ، لأنه لا يوجد فعل ماض من هذه الصيغة حتى تكون هذه مضارعاً له .

وقد أشار البوصيرى إلى قصة (تشميت الملائكة) للرسول — صلى الله عليه وسلم — فى قوله :

شمتته الأملاك إذ وضعته   وشفتنا بقولها الشفاء

والشفاء هى أم عبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنهما — .

وحديث التشميت رواه سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، كما جاء فى كتاب (الحلية) لأبى نعيم ، وقد حضرت الشفاء ولادة النبى ، وأخبرت إبنها بذلك ، ولم يشر إلى هذه القصة شوقى ولا أكثر المداح .

كما أشار كثير من المداح إلى قصة رضاع النبى فى بنى سعد ، وكيف جاءت حليمة السعدية تبغى طفلا ترضعه ، واضطرت أخيراً أن ترضى بهذا اليتيم فيكون بركة عليها ، قالوا : إن نساء بنى سعد وفدن فى سنة مجدبة على مكة يلتمسن الرضعاء ، وكان يهمهن المال ، فما منهن واحدة إلا عرض عليها اليتيم فصدهن عنه يتمه ، أما حليمة السعدية ، ذات الإتان العرجاء ، والناقة المسنة ، فقالت : (والله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً غيرى ، فلما لم أجد غيره قلت لزوجى : والله . إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه) .

وأخذته فدرت شاتها ، وأخصبت أرضها ، ولقيت من يمنه — صلى الله عليه وسلم — ما قرت به عينها .

وقد أجاد البوصيرى فى عرض هذه القصة حيث قال :

وبدت فى رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات قلن : ما فى اليتيم عنا غناء
فأتته من آل سعد فتاة قد أبتها لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها وبنيها ألبانهن الشاء
أصبحت سولا عجافا وأمست ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل إذ غدا للنبي منها غذاء
ياها منة لقد ضوعف الأجر (م) عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله إناسا لسعيد فإنهم سعداء

وهى أبيات جميلة حقاً ، لكن للمتأصل هنا وقفة ، فقد بنيت القصة على أن المرضعات أبين أخذ (محمد) ليتمه وفقره ، وأن حليمة أباها أمهات الأطفال وآباؤهم فى مكة لفقرها .

والوقفة فى الجزء الأول ، فمن المعروف المشهور أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان فى سنواته الأولى فى كفالة جده (عبد المطلب) وهو إذ ذاك سيد قريش ، ومن أغنيائها ، وقصة إبله مع صاحب الفيل معروفة ، فكيف يقال أن المرضعات أبين محمداً ليتمه أو لفقره ، إن أردن المال فهو فى كفالة غنى من أكبر أغنياء مكة ، وأن أردن الجاه فمكانة عبد المطلب معروفة مشهورة عند جميع قبائل العرب .

أما ما حدث من المعجزات فى أيام مقامه فى بنى سعد فلا أحد يستبعدها ، ولكن ينبغى أن تصح الرواية ، فالنبي — صلى الله عليه وسلم ، ليس فى حاجة بعد القرآن وبعد ما صح من المعجزات الحسية التى وقعت له ، ليس فى حاجة بعد ذلك إلى أن نضيف إليه شيئاً إلا إذا تأكدنا من صحة روايته .

كما أشار بعض الشعراء المحدثين إلى حادثة (الفيل) ، ومعلوم أن الفيل نكل أن يمس الكعبة ، وقد ولد النبي عام الفيل ، قال الشاعر :

أدرك الفيل بالغريزة معنى كان عند الفيال معنى بعيداً
حاد لما رأى الجلال عن البيت ولولاه لم يكن ليحيدا
آية للوليد علمت العجم (م) فراحت تفطم المولودا

هذه كلها إشارات إلى قصص مشهورة ، أما عمل الخيال فى وصف يوم الميلاد فقد جاءتنا منه بدائع سطرها الشعراء قديماً وحديثاً ، ويعجبنى قول شاعرنا الشيخ محمد الأسمر — عليه رحمة الله وبه أختم هذا الحديث :

يوم أغر كفاك منه أنه يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله يثنى إليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه وثباً على هام السنين ليرجعا

ويكاد مقبل كل يوم بعـــده   ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبـل أوانه   وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الآيام فى الشرف الذى   ملأ الوجـود فـلم يغادر أصبعا
خير أفاض الله منه على الـورى   أنى جـرى ترك الجناب الممرعا

المدائح النبوية

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

هذه هي الكلمة الأولى فى العقيدة الإسلامية ، وفيها يقترن اسم محمد بن عبد الله باسم الله العلى العظيم ، خالق الأرض والسموات .

والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يكررون هذه الشهادة فى الصلوات الخمس ، وفى غير الصلوات الخمس ، فهى كلمة تقال فى اليوم الواحد مئات الملايين ، وكفى بذلك شرفاً وامتداحاً لرسولنا الكريم — صلى الله عليه وسلم .

ولكن الشعراء ، وقد ملأت نفوسهم محبة الرسول ، واختلط الإيمان برسالته ، وبعظمته ، وباصطفاء الله له . . اختلط كل ذلك بدمائهم أرادوا أن ينالوا شرف المثول ببابه ، وأن يزينوا أشعارهم بذكر صفاته العالية .

والقلوب إذا امتلأت حباً فاض عبيره على الألسنة ، والصدور إذا غلبها الشوق أودعته الصحائف .

وقد علم الشعراء أن نبيهم — صلى الله عليه وسلم — ليس كغيره من أعيان الرجال ، وكبار الساسة ، وعظماء المصلحين . . أولئك

الذين يرفع المدح من أقدارهم ، ويعلى من مكانتهم ، ويخلد مآثرهم ، بل هو — صلى الله عليه وسلم — أعلى فى الشرف مكاناً ، وأسمى المفاخر منزلة ؛ فقد رفع الله ذكره ، وفضله على العالمين ، فما به حاجة إلى شعر الشعراء ، ونثر الكاتبين .

علموا ذلك ، وتيقنوه ، ولكنهم رغبوا أن يتمسحوا بالأعتاب وأن يقفوا بأكرم وأرفع باب ، وأن ينالوا بما يقولون حسن الثواب كما قال أمير الشعراء :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
علقت من مدحــه حبلا أعزبه ... فى يوم لا عز بالأنساب واللحم

مدح الله سبحانه رسوله بقوله : « وأنك لعلى خلق عظيم »، وامتن عليه بما من ، فقال : « وكان فضل الله عليك عظيما » ، فماذا يصنع الشعراء ، وأى سبب يتعلقون به حتى يصلوا أو يقاربوا

غاية المــدح فى علاك ابتداء ... ليت شعرى ما يصنع الشعراء؟!

إنهم أحسوا أنهم كالنافلة ، بينها وبين الفرض بون بعيد ، وعرفوا مكانهم الحق فقال أحدهم (عمر بن الفارض) :

أرى كل مدح فى النبي مقصرا ... وان بالغ المثنى عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالــذى هو أهـله ... عليه ، فما مقدار ما يصنع الورى

وقال آخر (الامام البوصيرى) :

إن معجزاتك العجــز عن وصـــفك إذ لا يحده احصـــاء

ويعجبني جد الإعجاب ما يقوله هذا الإمام الجليل ، وهو غاية في المدح والثناء ، والاعتراف بالعجز عن الوصول إلى المدى :

فمبلغ القــول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

كما يعجبني قول التقي الصالح عبد الرحيم البرعي :

صفوه بما شئتم فوالله ما انطــوى على مثله في الكون أم،ولا أب

والباحث يجد كثيرين من الشعراء مدحوا الرسول ، وتركوا كثيراً من الشعر في هذا الغرض يكاد يعيي من يحاول الاستقصاء ، وفي مجموعة واحدة ، هي مجموعة النبهاني عشرون ألف بيت ، مع أن صاحبها لم يدون كل ما قيل ، ولا جزءا من عشرة أجزاء .

وقد كان للرسول في حياته شعراء يمدحونه ، ويهجون خصومه ، ويدافعون بألسنتهم عن الإسلام ، وكان من أشدهم على المشركين حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وقد دعا الرسول لحسان ، فقال : اللهم أيده بروح القدس .

ومن مدائح القدامى المشهورة مدحة كعب بن زهير ، ومدحة النابغة الجعدي ، ومدحة أعشى بكر . وقد كانوا يمدحون النبي — عليه الصلاة والسلام — بحسن الخلق ، والصدق في القول ، والأخلاص في العمل ، والعفو عند المقدرة ، وما أشبه ذلك من الصفات النفسية .

فلما كانت العصور المتأخرة توسع الشعراء فى المديح ، فجعلوا يضيفون إلى معانى الأولين كل ما يتصل بالسيرة النبوية ، فيذكرون معجزاته ، وأرهاصات نبوته ، ومولده ورضاعه ، وغزواته . . . وهكذا . .

وكان إمام المداحين — بلا منازع — شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى ، وأن أخذت عليه بعض المآخذ .

نعم يهز النفس أمثال ابن الفارض والبرعى والشهاب محمود ، ولكن البوصيرى فى هذا المجال أمام الركب .

وقد يتساءل متسائل : ما بال كبار الشعراء أمثال المتنبي والبحترى وأبى تمام لم يقولوا فى مدح الرسول ؟ .

وقد أجاب بعض الكاتبين عن ذلك بأن مدح الرسول من جملة الطاعات ، وهؤلاء لم يوفقوا لهذه الطاعة ، كما أن كثيراً من الأغنياء لا يحجون ولا يزكون ، ولا يتصدقون ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن أغراض الشعر العربى لم تكتمل كلها دفعة واحدة ، بل ظلت تنمو وتتدرج ، فيضيف كل عصر إليها غرضاً أو أكثر ، فشعر السياسة — مثلا — نشأ فى العصر الأموى ، وشعر الوعظ والزهد ازدهر فى العصر العباسى ، وشعر المدائح النبوية شاع فى العصر المملوكى . . . . وهكذا .

على أن بعض الشعراء مثل الكميت بن زيد والسيد الحميرى ودعبل

ابن على قد شغلهم مدح آل البيت ، والبكاء لمـا أصابهم عن امتداح الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكان صنيعهم هذا مذهبا سياسيا ، فلم يدخل فيه من لم يكن على مذهبهم .

وربما كان أحجام كبار الشعراء عن هذا الغرض شعورهم بالقصور حياله ، فهم يهيمون فى الخيال ، والخيال لا يغنى هنا ، بل ربما كان بعضهم حاول ذلك ولكنه لم يرض عما تيسر له من المعانى ، ورآها دون الجيد من شعره فأعرض مفحما لا مقصرا .

وأيا ما كان فقد أفاض المتأخرون فى مدح الرسول ، وبعضهم نظم فى هذا الغرض دواوين بأكملها . ونجد هذا الاتجاه الطيب عند شعراء السودان الذين عاشوا فى أول هذا القرن أو فيما سبقه ، فما منهم إلا من مدح الرسول ، وبعضهم له ديوان كامل فى المديح ، وبعض هذه الدواوين باللغة العامية ، منها (ديوان أبى شريعة) ، وما زالت هذه الدواوين منهلا يرده كل من أراد المديح من أصحاب هذه الصفة الحبيبة إلى السودانيين .

وشعراء المديح النبوى ، وإن لم يكونوا كلهم من الشعراء المبرزين ، فقد أغناهم سمو الغرض ، وذات الممدوح من بلوغ الذروة فى البلاغة ، والنفس المؤمنة تجد فى هذا الشعر غذاءها الروحى ، وإن لم تجد فى بعضه البلاغة العالية والأسلوب الرصين .

وهؤلاء الشعراء منذ عهد كعب بن زهير يتخذون الغزل فاتحة لمدائحهم ، وهذا تقليد عربى قديم ، فالشعراء يبتدئون

أكثر قصائدهم بالغزل ، وإن هجرت هذه العادة فى بعض العصور عند بعض الشعراء ، ولكنها بقيت ملازمة للمدائح النبوية ، ولذلك قل أن نجد مدحة لاسيما المطولات ابتدئت بغير الغزل ، وغزل البوصيرى فى بردته ، وغزل شوقى فى نهج البردة معروفان مشهوران .

ولكن يمتاز هذا الغزل بأن أكثره مهذب مؤدب ، وقد رسم (ابن حجة الحموى) صورة للغزل الذى تبدأ به المدائح النبوية ، فقال : (وهنا فائدة ، وهى أن الغزل الذى يصدر به المديح النبوى يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ، ويتأدب ويتضاءل ، ويتشبب مطرباً بذكر سلع ورامة وسفح العقيق ، والعذيب ، والغوير ، ولعلع ، وأكتاف حاجر) .

وقد كفانا ابن حجة مؤنة القول فى غزل المداحين ، ونؤيده بذكر مثل منه ، يقول الشهاب محمود الحلبى ، المتوفى سنة ٧٧٥ هـ :

رأى الركائب تحدى فانثنى كلفا ... صب بكى أسفا ، والبين قد أزفا
مغرى بحب الحمى تهفو جوانحه ... إن برقه لاح أو قمريه هتفا
يكاد يقضى عليه فرط لوعته ... إذا تذكر عهدا بالحمى سلفا

ومن غزل أمير الشعراء شوقى فى نهج البردة :

لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... ياويح قلبك بالسهم المصيب رمى

جحدتها ، وكتمت الحب فى كبدى جرح الأحبة عندى غير ذى ألم
يالائمى فى هواه والهوى قـدر لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبدا أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

وربما ابتدأوا المدائح بغير الغزل ، وربما دخلوا على المدحة مباشرة .

والمدائح النبوية ديوان كامل لأهم أحداث السيرة النبوية ، فإن الشعراء جهدوا أن يضمنوا مدائحهم كثيراً من أحداث السيرة ، كما نجد فيها ذكر الأماكن الحجازية ، والتشوق إلى زيارة بيت الله الحرام ، والحنين إلى مشاهدة مسجد الرسول وقبره بالمدينة ، وفيها ذكر لكثير من الصحابة ، وإشادة بمحاسن الشريعة ، وتكاد تكون المدائح النبوية أكثر الأشعار إشتمالا على الحكم والمواعظ ، وهى مواعظ مؤثرة غاية التأثير ، فإنها تواجه النفس وهى فى جو صفاء روحى ، فتتمكن منها ، وتدفعها إلى الطاعات ، وكثيراً ما يتخذ المادح من محاسبة نفسه ، ومعاقبتها عظة للآخرين ، يقول البرعى :

متى يستقيم الظل والعود أعوج وهل ذهب صرف يساويه بهرج
هى النفس والدنيا وإبليس والهوى بطاعتهم عن طاعة الله أزعج
أريد مقام الصالحين وليس لى كمنهجهم فى الدين دين ومنهج
إذا حضر الأخوان للذكر والبكا حضرت كأنى لاعب متفرج

وقال البوصيرى وهى من أروع المواعظ :

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فماقولى لك استقم ؟!
ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم
وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولاتطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقد تقدم ذكر بعض الأماكن الحجازية ، ومن ذلك ما جاء فى شعر يحيى الصرصرى — رحمه الله — الذى قتله التتار فى سنة ٦٥٦ ه :

جادالحيا (وادى الصفراء) وانبجست ... عيونه ، و كسا منه الربيع ربا
ولا نأى القطر عن (وادى العقيق) ولا ... زال الربيع عليه مشفقاً حدبا
وأضحت الناجيات القود من مرح ... لاتسأم الوخد فى البيداء و الخببا
وتستقل بنا والشوق يقدمها ... فلا تحس على طول السرى نصبا
إلى حمى طاهر رحب الذرا عطر ... إذا أتته المطايا تحمد الدأبا

شعراء المدائح

عدد يكاد يخطئه العد هم أولئك الشعراء الذين مدحوا النبي — صلى الله عليه وسلم — ولذلك فمن المغالاة بالنفس أن يحاول باحث أن يترجم لهم جميعاً ، أو لأكثرهم ؛ لأن ذلك يتطلب مراجع من العسير أن يظفر بها باحث .

ولذلك فنحن هنا نكتفى بأقل القليل منهم ، بل بالنزر اليسير ، وليس ما يكتب هنا تراجم لهؤلاء بمعناها العلمى ، وإنما هو إبراز لجانب من جوانب هؤلاء الشعراء هو موقفهم من مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم .

هؤلاء الشعراء الذين جاهدوا بألسنتهم ، فلم يكونوا أقل شأناً من الذين جاهدوا بسيوفهم وأموالهم ، بل أن الرسول الكريم يثلج صدر حسان بن ثابت — رضى الله عنه — حين يخبره أن شعره أنكى فى المشركين ، وأشد عليهم من وقع النبال .

فمعركة الكلمة فى صدر الإسلام لا تقل شأناً عن معركة السيف ، وربما سبقت الكلمة السيف ، فجاءت إحدى القبائل مسلمة لبيت من شاعر ، أخافها وأقلقها ، فآثرت السلامة ، وآمنت بما جاء به محمد — عليه الصلاة والسلام .

والمداح الذين جاءوا بعد استقرار الإسلام ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، كان لهم أيضاً شأن وأى شأن فى تثبيت العقيدة الإسلامية فى النفوس ، وفى سيادة الأخلاق الكريمة ، فهى فى جملتها توسخ الحب الكامن فى نفوس المؤمنين لنبى الإسلام ، وإذا قوى الحب ورسخ فى النفس كان دافعاً قوياً لأن ينهج المحب نهج المحبوب ، وهكذا كانت المدائح النبوية من أسباب رسوخ العقيدة ، وحسن الاتباع للرسول ، وبالسير على منهجه ، والانقياد لأوامره ، والإعلاء لسنته ، والرسول الكريم خير أسوة يأتسى بها الرجل المسلم ، وكلما زاد حبه للرسول كان تمسكه بالإخاء به أقوى وآكد .

ولطالما رأينا الجماعة من المسلمين تنشد عليهم المدحة لرسول الله فتصفو نفوسهم ، وتسمو مشاعرهم ، وربما أقلع أحدهم عن رذيلة طالما ارتكس فيها .

وما أظن عاقلا ينكر تأثير الكلمة فى النفوس ، وها نحن أولاء نرى آثار الكلمات السيئة التى تموج بها أغانينا فى نفوس شبابنا ، بل لا أرانى أعدو الحقيقة إذا قلت فى نفوس شيوخنا أيضاً .

كما نرى — أيضاً — آثار الكلمات المؤمنة فى النفوس ، تلك الآثار الطيبة التى تبعثها قراءة قصيدة تحث على مكارم الأخلاق ، أو تكشف عن أخلاق كريمة فى شخصية كريمة .

ولقد أرانى محقاً إذا قلت أن الإنسان يتأثر بما يقرأه ، أو بما يسمع

أكثر مما يتأثر بما يرى ويشاهد ، وربما كان السر فى ذلك أن الكلمة تبقى فى النفس أمداً طويلا ، أما المنظر سواء كان جميلا أو غير جميل فإنه ينقضى أثره بانقضاء مشاهدته ، ولا يكاد يبقى فى النفس منه شئ إلا إذا كان منظراً شديد الإثارة .

ولقد ذهبت الوقائع التى كان لها آثار حاسمة فى تاريخ الإسلام ، وأصبحنا لا نعرف منها إلا ما نقرؤه عنها ، لكن ما قيل من الشعر فى نصرة الدعوة ، وفى مديح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وما قيل بعد ذلك فى إظهار محاسن الشريعة ، لا يزال باقياً تردده الأجيال ، وتتأثر به .

من هنا أثرت أن لا تخلو هذه الصفحات القصار التى يسعدها ويشرفها أن تكون معطرة بالوقوف مع الرسول الكريم ، أن لاتخلو من الحديث عن هذه الفئة السعيدة التى شرفها أن تضئ أشعارها بمديح خاتم النبيين .

ولما كانت هذه الصفحات — كما قلت — قصاراً اكتفيت بالحديث عن بعض هؤلاء المداح ، وفى الحديث عنهم — كما أظن — غناء فى مثل هذه المواقف التى كان التدبير فيها ألا تطول .

حسان بن ثابت

من أشهر مداح الرسول ، ومن أنفذ المدافعين عن الدعوة لساناً ، ومن أشد الشعراء على قريش وشعرائها .

حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، ينتهى نسبه إلى قحطان ، ومن أجداده عمرو بن ماء السماء ، الذى يلقب (مزيقياً) ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، فإذا أمسى مزقها كراهة أن يلبسهما ثانياً ، أو يلبسهما غيره ، وقد فخر أوس بن الصامت ، وهو من قبيلة حسان بالبيت المشهور :

أنا ابن مزيقياً عمرو ، وجدى أبوه منذر ماء السماء

إنما لقب (بماء السماء) لحسن وجهه

وقبيلة حسان (الخزرج) ، وهى و(الأوس) من القبائل التى هاجرت أصولها من اليمن بعد تهدم سد (مأرب) ، وقد نزلت بيثرب ، وأقامت بها زمناً طويلا قبل الإسلام ، وكان بين القبيلتين إحن وحروب ، ومفاخرات ، حمل لواءها عن قبيلة الأوس قيس بن الخطيم ، وهو شاعر فحل ، وعن قبيلة الخزرج حسان بن ثابت ، وكان ذلك قبل الإسلام .

ورهط حسان الأدنون بنو النجار ، وهم أخوال النبى — صلى الله عليه وسلم — ، لأن أم عبد المطلب بن هاشم جد النبى كانت من بنى النجار .

فأصول حسان أصول عريقة فى المجد ، ونسبه نسب كريم ، وهو — بعد — يتصل بالنبى بصلة قريبة ، وثيقة .

من هنا لم يرهب حسان شعراء قريش الذين كان يقاولهم ، لم يخش أن يطعنوه فى نسبه ، حين كان يطعن بعض سادة القرشيين فى أنسابهم ولم يخف أن يرموه بخمول الذكر ، فهو شاعر الخزرج ، والمدافع عنهم ، والمساجل للشاعر العظيم وقيس بن الخطيم ، شاعر الأوس .

وهو الآن حين يهاجر شعراء قريش ، ويرد عليهم قد جاوز الستين من عمره ، فقد ولد حسان بيثرب .

وقد حدث أنه كان ابن سبع أو ثمان سنين حين بشر يهود يثرب بميلاد الرسول ، وهذا يدل على مدة عمره فى الجاهلية ، فالنبى — صلى الله عليه وسلم — كما هو معروف — بعث وله من العمر أربعون سنة ، وأقام بمكة — بعد البعث — ثلاثة عشرة سنة ، فقدم المدينة ولحسان يومذاك ستون أو إحدى وستون سنة ، وحينئذ أسلم ، فهو من أوائل المسلمين من الأنصار .

فقد اجتمع لحسان كرم الأصل ، وعظم المكانة ، ورجاحة السن ، فلا غرو كان الكفء القوى لمنازلة شعراء قريش .

وقد عاش حسان مائة وعشرين سنة ، ستين فى الجاهلية ، وستين

فى الإسلام ، وكذلك عاش أبوه ثابت ، وجده المنذر ، وجد أبيه حرام مائة وعشرين سنة ، ولا يعرف فى العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد ، وعاش كل منهم هذه المدة غيرهم .

ويكنى حسان (أبا الوليد) ، و (ابن الفريعة) ، وهى أمه من الخزرج ، وكثيراً ماكان ينسب إليها .

ولم يشهد مع رسول الله مشهداً ، ومع ذلك كان يحسن وصف المواقع كما لو كان من أبطالها ، وربما حضر المواقع ، ولكن لمؤازرة الجيش دون أن يشترك فى القتال اشتراكاً فعلياً .

والمشهور أنه مات فى خلافة معاوية سنة ٤٥ هـ ، وهذا يناقض ماقيل إنه عاش فى الإسلام ستين ، فربما كان هذا القول على التقريب .

جاهد حسان بلسانه أعداء الرسول ، وثبت لشعراء قريش ، وتغلب عليهم ، وكان الرسول يحرضه على هجائهم ، ويعجب بشعره ، وقد أهدى له جارية تسمى (سيرين) ، وهى أخت مارية القطبية أم سيدنا إبراهيم بن الرسول ، كما ظل الخلفاء الراشدون يكرمونه ، ويعرفون له حقه .

وقد هفا حسان هفوة فى حق السيدة عائشة — رضى الله عنها — ولكنها عفت عنه لجهاده فى نصرة الدعوة الإسلامية .

روى أن عائشة كانت تطوف مع عقيلتين من عقائل المسلمين ، فتذاكرتا حسان بالسب ، فقالت عائشة : ابن الفريعة تسبان ؟ أنى

لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبي بلسانه ، أليس القائل ؟ :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
فأن أبي ووالده وجدى لعرض محمد منكم وقاء

والخطاب هنا لسفيان بن الحارث ، وكان من شعراء قريش الذين هجوا النبي ، ثم أسلم ، وحسن إسلامه ، وكان من الذين ثبتوا مع الرسول يوم حنين ، وقد فر أكثر المسلمين ، ثم عادوا .

وروى عنها أنها قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة .

وروت عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى شأن حسان : لايحبه إلا مؤمن ، ولايبغضه إلا منافق .

موقفه من الدعوة الإسلامية :

كان يهجو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ويهاجم الدعوة الإسلامية نفر من شعراء قريش ، منهم : عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب — وهو ابن عم الرسول — ، وضرار بن الخطاب ، أخو سيدنا عمر ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعلى بن أبي طالب — رضى الله عنه — : إهج عنا القوم الذين قد هجونا فقال : إن أذن لى رسول الله فعلت ، فقال رجل : يارسول الله ، إئذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا ، فقال الرسول :

ليس هناك[1] ، أو ليس عنده ذلك .

ثم قال للأنصار : مايمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ، فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله مايسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء ، فقال الرسول : كيف تهجوهم ، وأنا منهم ؟ فقال : أنى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين .

وكان حسان كثيراً مايفخر بلسانه ، ومن ذلك قوله : ماسرنى به مقول من العرب ، والله ، لو وضعته على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه .

وقوله :

لسانى صارم لاعيب فيــه ... وبحرى لاتكدره الدلاء

وكما يفخر بلسانه وبيانه يفخر ببلاء الأنصار فى جهاد المشركين

لنا فى كل يوم من معــد ... قتــال أو سباب أو هجاء

فنحكم بالقــوافى من هجانا ... ونضرب حيث تختلط الدماء[2]

وفى رواية للأغانى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — فضل حسان على صاحبيه : عبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك ، حيث قال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك

---

(١) عبارة موجزة ، معناها : لا قدرة له على هذا العمل .

(٢) نحكم : نخضع

فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت ، فشفى واستشفى)[1] .

ولعل أبا عبيدة معمر بن المثنى اعتمد على هذا الحديث حين فضل حسان على سائر الشعراء ، وذلك حيث يقول : (فضل حسان الشعراء بثلاثة : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى — صلى الله عليه وسلم — فى النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام)[2] .

كان هؤلاء الشعراء الثلاثة يجيبون شعراء قريش ، وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم فى الوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان أشد القول عليهم فى ذلك الزمان قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا ، وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وقد استعان حسان — كما أرشده الرسول — بأبى بكر ، وكان — رضى الله عنه — نسابة ، فعرف حسان أنساب القوم ، وما يعابون به فيها ، حتى أن قريشاً لما سمعت شعر حسان — ولم تكن تعرف قائله — ظنته شعر أبى بكر ، وقالت : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا .

وعرف مكان حسان ، وأنه شاعر الرسول ، وخافه أعداء الدعوة حتى كان بعضهم يستجير بالرسول من لسانه .

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٤٢ .

(٢) الأغانى جـ ٤ . ص ١٣٦

فقد كان رجل من سادات العرب طلب من الرسول أن يبعث معه من يدعو قومه إلى الإسلام ، فأرسل معه رجلا من الأنصار ، فغدرت به عشيرته وقتلوه ، فلما جاء الرجل إلى النبي يعتذر من فعلة قومه بالأنصارى هجاه حسان ، ورماه بالغدر ، وبأن الغدر شيمة فيه وفى قومه ، فلجأ الرجل إلى الرسول ، وقال له : أجرنى من شعر حسان ، فلو مزج البحر بشعره لمزجه ، أكففه عنى يامحمد ، أنا عائذ بك من شره .

وقد أخبر النبي أن روح القدس يؤيد حسان ، وبالغ بعض الإخباريين فى ذلك فزعم أن جبريل — عليه السلام — أعان حسان فى مديح النبى بسبعين بيتاً .

ولو أن كل الشعر الذى قاله حسان وصل إلينا لعرفنا مدى نكاية هذا الصحابى الجليل بأعداء الدعوة الإسلامية .

ولكن سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — كان نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضات الأنصار ، ومشركى قريش ، وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام .

وقد كان لهذا النهي أثره عند المتورعين من المسلمين ، وإن كان عمر عاد فأباح للأنصار أن يرووا هذا الشعر ، ولكن ذلك لم يحفظه لنا كله ؛ لأعراض كثير من الرواة عن رواية المثالب .

وقد ساعد على إهمال كثير من الشعر أن الدولة الأموية التى تلت عهد الخلفاء الراشدين كان كبار رجالها — وقت الدعوة — فى جانب المشركين ، فى رواية هذا الشعر سب لآبائهم ، ولذوى قرباهم ، فمن البدهى أن يتحاشى الرواة رواية مثالب آباء الخلفاء وأجدادهم .

* * *

ولم تقتصر مدائح حسان على النبى — صلى الله عليه وسلم — وذكر غزواته ، وهجاء أعدائه ، وإنما شرفها أيضاً بمدح الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن أروع قصائده فى امتداحهم قصيدته العينية ، ولهذه القصيدة قصة :

جاء إلى النبى وفد من قبيلة بنى تميم ، كان زهاء الثمانين رجلا ، فيهم كبار رجال القبيلة ، فخطب خطيبهم ، وقال شاعرهم — وكان الزبرقان بن بدر — فأجاب ثابت بن قيس الأنصارى خسطيب بنى تميم ، وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول الله فجاء ورد على الزبرقان بقصيدة ارتجلها ، فبز خطيب الأنصار خطيب بنى تميم ، وبز حسان الزبرقان فقال الأقرع بن حابس ، وهو سيد من سادات تميم ، وأحد رجال الوفد — : والله ، إن هذا الرجل (يريد النبى — صلى الله عليه وسلم — (لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا .

وقد بدأ حسان القصيدة بمدح المهاجرين والأنصار ، فأثنى عليهم أولا بحسن بلائهم فى نشر الإسلام ، وثانيا بشجاعتهم وسيادتهم :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت خليقته
تقوى الإله ، وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

ثم وصفهم بالجود والعفة والحلم ، ثم قال :

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه ، وما نزعوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم
أو قال عوجوا علينا ساعة رجعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
أهل الصليب ومن كانت له بيع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

ولا يقال إن حسان صدر فى هذه القصيدة عن عصبية ، وأنها

خالية من روح الدين — كما ذهب إليه المرحوم زكى مبارك فى المدائح النبوية — .

ذلك أن حسان لم يقصر قصيدته على الأنصار ، بل ذكر المهاجرين فى أول بيت ، بل ذكرهم قبل الأنصار .

وقد كان الموقف يقتضى حسان أن ينهج هذا النهج الذى جاءت عليه القصيدة ؛ فهؤلاء التميميون فاخروا النبي والمسلمين برجالهم وأمجادهم فكان طبيعياً أن يكون الرد عليهم فخرا بالرجال والأمجاد .

وفى القصيدة إشادة واضحة بالدين الجديد ينطق بها البيت الثانى ، وإشارة إلى مجادة هؤلاء الأصحاب ، فهم قد أعطوا طاعتهم (نبى الهدى) ، وهم كرام لأن رسول الله شيعهم ، مع لهم من أخلاق كريمة فى السلم وفى الحرب .

فأين روح العصبية فى هذه القصيدة ؟

وكيف خلت من روح الدين ما عدا بيتاً منها ذكره الكاتب ؟

ولكن من الإنصاف لصاحب كتاب (المدائح النبوية) أنه لم يقف من مراثى حسان موقفه من بعض مدائحه ، فقد أشاد بالمراثى ، وبالروح الدينية التى فيها وذكر أن هذه المراثى تفيض بالمعانى الرقيقة السمحة ، وتنم عن روح دينى مصقول ، غير أنه لم يترك الموضع حتى بعث شكا ، فقال أنها قصائد لينة من حيث النسج بحيث نخشى

أن تكون من الشعر المنحول ، فإنها لو أضيفت إلى رجل كالبوصيرى لقبلت لما يغلب عليها من الرقة واللين .

ولا نظن أن الدكتور — رحمه الله — نسى ما وصف به شعر حسان ، وإنما نرجح أنه لم يقبل ما قيل فى وصف هذا الشعر من اللين ، وأيا ما كان ، فإن الواقع كان كذلك ، وذلك أن شعر حسان لان بعد الإسلام ، وقد ووجه حسان نفسه بهذا فقيل له : لان شعرك ، أو هرم فى الإسلام ، يا أبا الحسام . فأجاب : إن الإسلام يحجز عن الكذب ، والشعر يزينه الكذب .

وقد نضيف إلى ما قاله حسان أن الرجل تقدمت به السن فليس الشعر الذى يقال فى سن المائة مثلا كالشعر الذى يقال فى سن الثلاثين أو ما يقاربها .

وربما كان أطيب ما نختم به هذه الكلمة أن نذكر أبياتاً من جيد رثائه لنبينا — صلى الله عليه وسلم — :

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
وهل عدلت يوما رزية هالك ... رزية يوم مات فيه (محمد)
فبكى رسول الله يا عين عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما فقد الماضون مثل « محمد » ... ولا مثله حتى القيامة يفقد

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين ، ورضى عن حسان وعن كل صحابة رسول الله .

البوصيرى

أمام مداح الرسول غير منازع ، فله ديوان أكثر ما فيه من الشعر فى مدح إمام الأنبياء محمد بن عبد الله — عليه صلاة الله وسلامه — وقصيدتاه (البردة) و « الهمزية » مشهورتان .

وقد كان لهما ولسائر شعره فى المديح أكبر الأثر فيمن جاءوا بعده من الشعراء الذين أسعدتهم حظوظهم فمدحوا الرسول .

ويكفى أن أكثر من تسعين شاعراً خمسوا البردة ، وأن عدداً غير قليل عارضها ، ومن هؤلاء فى عهد نهضتنا الحديثة محمود سامى البارودى وأحمد شوقى .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن مدائح البوصيرى نلقى قليلا من الضوء على حياته ، وشعره بعامة .

محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى ، هذا إسم هذا الشاعر ، أما كنيته فهى أبو عبد الله ، وأما لقبه فهو شرف الدين[1] .

---

(١) فائدة :

فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٦٢ .

قال مؤلفه ابن تغرى بردى ، معلقاً على تلقيب أبى سعيد بن ماكولا وزير جلال الدين البويهى بعلم الدين : (وهذا ثانى لقب سمعناه من اسم مضاف إلى الدين ، =

وصنهاجة التي ينتمي إليها إحدى قبائل البربر ، وكانت تنزل في الصحراء ، جنوبي المغرب الأقصى .

أما بوصير فهي قرية من قرى محافظة بني سويف ، وقد ولد بقرية يقال لها (دلاص) وهي — أيضاً — من قرى بني سويف ، وكان أحد أبويه من بوصيرى ، والآخر من دلاص ، فركبت له نسبة منهما ، فقيل (الدلاصيرى) ، ولكن هذه النسبة لم تشتهر .

وقد انتقل في سن مبكرة إلى القاهرة ، وتعلم العربية والأدب على مشيختها ، وكان من حسن حظه أن اهتدى إلى الشيخ أبي العباس المرسي حين رحل إلى الإسكندرية ، وكان المرسي قد وفد إليها مع شيخه أبي الحسن الشاذلي .

وفي هذا الجو الصوفي نشأ البوصيرى ، وفي نهاية القرن السابع الهجرى توفي ودفن بإزاء قبر ، أستاذه المرسي بمدينة الإسكندرية .

= وأول ما سمعناه من هذه الألقاب لقب بهاء الدولة بن بويه (ركن الدين) .

قلنا : لعل ذلك كان تعظيما في حقه ؛ لكونه سلطاناً ، فيكون على هذا الحكم هو أول لقب لقب به في الإسلام . والله أعلم) .

(ومن يومئذ ظهرت الألقاب ، وتغالت فيها العجم ، حتى أنهم لم يدعوا شيئاً إلا وأضافوا الدين له ، حتى اشتهر ذلك وشاع ، وسمى به كل أحد ، حتى الأسالمة (أظنه يقصد المسيحيين) ، فمنهم من يسمى جلال الدين ، وسعد الدين ، وجمال الدين فلا قوة إلا بالله) .

(وحق المغاربة في حنقهم ممن يلقب بهذه الألقاب . وأنا بالله أحلف لو ملكت أمرى ما لقبت بجمال الدين ولا غيره ، وأكره من يسميني بذلك ، ولا قدر على تغيير الاصطلاح) . اهـ . كلام ابن تغرى بردى .

وقد تقلب البوصيرى فى وظائف عدة ، وأشهرها مباشرة الشرقية ، ويبدو أن مرتبه لم يكن كافياً ، فكان يكثر من الشكوى ، ومن كثرة العيال .

وكانت له عين بصيرة نافذة ، فأخذ يدرس بيئته ، ويتعرف على خفاياها ، ولم يكتم فى نفسه شيئاً مما رأى ، فقال الشعر يعبر به عن مجتمعه ، ومن ذلك قصيدة له مشهورة فى نقد الموظفين . منها :

نقدت طوائف المستخدمينا   فلم أر فيهم رجلا أمينا
فكتاب الشمال هم جميعا   فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وماعرفنا   بهم فكأنما سرقوا العيونا

وفى القصيدة ذم القضاة ، ورماهم بأنهم يخونون الأمانة ، وأنهم يتأولون نصوص الشرع ليصح لهم أن يأخذوا ما يريدون من غير وجه حق .

تفقهت القضاة فخان كل   أمانته ، وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر   سوى من معشر يتأولونا

وقد ذكر فى القصيدة الحجج الواهية التى يتذرع بها الخائنون من رجال الأديان الثلاثة .

فالمسلمون يقولون أن لنا فى هذه الأموال حقوقاً ، ونحن أولى بها ، والأقباط يقولون : نحن ملوك مصر ، وغيرنا مغتصب لحقوقنا ، أما اليهود فأمرهم عجب :

وحلت اليهود بفعل مسبت هم مال الطوائف أجمعينا

وأخيرا يذكر رجلا يعتبره شريكا لهم ، وأظنه القاضى :

وما ابن قطيبة إلا شريك هم فى كل ما يتخطفونا

ثم أخذ يصف ابن قطيبة هذا ، وكان مما قال فيه أنه كان مشغولا بتحصيل التبن ، فأصبح مشغولا بتحصيل الذهب :

وأصبح شغله تحصيل تبر وكانت راؤه من قبل نونا[1]

وربما كان يقصد أنه كان قبل ذلك كالأنعام ، لا هم لها إلا أكل التبن ، فأصبح بعد أن ولى ما ولى يعمل عمل الأناسى ، يغتنى ويقتنى ، ولكن عن طريق الجور والظلم .

وهو — فى هذه القصيدة — يستعدى الوزير على هؤلاء الخونة ، الذين أظهروا نسكاً وتزهداً ، فى حين يأكلون السحت . وذلك حيث يقول :

تنسك معشر منهم وعدوا من الزهاد والمتورعينا

وقيل لهم دعاء مستجاب وقد ملأوا من السحت البطونا

والذين كتبوا عن البوصيرى ينظرون إلى هذه القصيدة نظرة خاصة وقد كانت مشهورة فى زمنها، ويعلل بعض المتأخرين شهرتها بموافقتها

(١) أى راء التبر ، وإذا كانت الراء نوناً فإن التبر يكون تبناً .

لنفسيات الجماعة التي تحقد — منذ قديم — على الموظفين ، وتتلمس لهم المثالب والمعايب ، ويرى أن لها قيمة تاريخية ؛ لاحتوائها على ما كان بين طوائف الأمة آنذاك من خلاف ، وعلى ما كان فى الإدارة الحكومية من عيوب .

ولكن قيمتها عندى — ولذلك أطلت النظر فيها — فى دلالتها على نفسية البوصيرى ، فالرجل وإن لم يكن فى وقت نظمها وإذاعتها ذا مكانة فى التصوف ، فهى تدل على أن روح صاحبها تميل إلى العفة والنزاهة ، وتألم لما يشيع بين الناس — وبخاصة الموظفين — من خيانة ، بل وصولية تبيح لبعضهم أن يتزيا بزى الزهاد ليصل إلى مأربه من أكل السحت ، والتمتع بشهوات الحياة ، كما تألم لشهاد الزور الذين يضللون القضاة . .

وقد كان الرجل ذا عيال ، ووظيفته لا تكاد تكفيه وتكفيهم ، فلو أنه استجاب لهذا الوسط الذى عاش فيه ، يصنع صنيعه ، وكفى نفسه وأسرته ، ولكنه — على ما أعتقد — كان منذ شبابه يحمل نفساً أبية ، ويخضع فى سلوكه لضمير دينى متيقظ ، وهذا ما يدلنا على أنه كان يسير فى طريق قويم على الرغم مما رووا عنه من شعر فيه ما لا يرتضى .

ولعل تفتح شاعريته على (البردة) و (الهمزية) و (معارضة بانت سعاد) يدلنا على أن معدن نفسه لم يكن زيفاً فى يوم من الأيام ،

فلا يمكن أن ينتقل الإنسان فجأة من متبطل إلى متصوف، يقول أصدق الشعر وأعذبه ، وأدله على الإخلاص فى مدح الرسول .

* * *

والذى وصلنا من شعره — وديوانه مطبوع — يجعلنا فى حيرة من أمره ، فهو فى غير المدائح شاعر دون الوسط : أسلوبه نازل إلى حد ما ، ومعانيه يضؤل فيها الخيال ، وألفاظه — فى بعض القصائد — أشبه بألفاظ الحياة العادية ، أما فى المدائح فنرى الجزالة والأحكام، واللفظ القوى ، والمعنى الرائع ، والخيال البارع البديع .

ولذلك ، فإنى أرجح أن فى شعر البوصيرى حلقة مفقودة ، فيبدو أن شعره الضعيف قيل فى أيام الحداثة ، وفى مبدأ قوله للشعر ، وأيام أن كان مباشراً فى الشرقية ، يغدو ويروح مع الموظفين والعمال ويسمع منهم ، ويشعر لهم . أما الشعر الذى يتمنى كل شاعر مبرز أن يكون له نصيب منه فقد قاله فى أخريات حياته فلا مندوحة من أن نفترض أنه كان بين هذين النمطين شعر لم يصل إلينا ، وأن هذا الشعر المفقود كان الوسط فى شعره ، وكان مرحلة من مراحل تطور شاعريته .

والنقاد يقولون — وقد نسب هذا لحسان بن ثابت كما أسلفت : — أن الشعر يقوى فى الشر ، ويضعف فى الخير ، ولكن شعر البوصيرى ينقض هذه النظرية . فهو جيد غاية الجودة فى المدائح النبوية ، ردىء إلى حد كبير فى غيرها من الأغراض .

وبعض الكاتبين يرى أن السر فى اختلاف النسج فى شعر البوصيرى أنه حفل بالجزالة ، وحسن استعمال البديع فى مدائحه النبوية ، فى حين لم يحفل بهذه المزايا فى غيرها .

وهو رأى بنى على أن فى قدرة الشاعر أن يتخلى عن طبعه ، أو يرتفع عنه كما يريد ، وليس سر الروعة فى المدائح راجعاً إلى الصنعة ، وإنما هو راجع إلى الطبع ، والذى يروع فى مدائح البوصيرى ليس نسجه فقط ، وإنما تلك المعانى الجميلة ، وذلك الروح الصافى ، وما آزرهما من الشعور الصادق ، والحكم العالية الرفيعة .

وبعض آخر يرى أن السر فى ضعف ما ضعف من شعر البوصيرى هو طول قصائده ، وهو رأى غريب ، فالطول فى قصائد البوصيرى هى مدائحه ، ومقطعاته ضعيفة ، وكذلك قصار قصائده .

ويرى فريق ثالث أن السبب يرجع إلى موضوع القصيدة ، فإذا كانت هزلا ، أو دعابة ، أو شكوى ، أو نقداً نزل أسلوبها إلى مستوى المجتمع ، وإذا كانت مدحاً أو حكماً علت وأحكمت .

وهذا تعليل أشبه بالوصف منه بالتعليل ، فهو يصف ماوصل إلينا من شعر البارودى ، وهو كما قال ، المدائح والحكم رائعه ، وماقيل فى الأغراض الأخرى دون ذلك ، ولكن ما السبب ؟ .

على أن طبيعة الشاعر لاتختلف هذا الاختلاف البين بسبب اختلاف موضوعات القصائد ، فالشاعر طبيعته واحدة سواء جد أو هزل . .

نعم . لكل غرض من الأغراض أسلوبه الذى يلائمه ، ولكن الطابع العام للشاعر لايتخلى عنه عن الأسلوب فى أى غرض من الأغراض .

ونعود إلى مدائح البوصيرى فنؤكد ما أسلفناه من أنه إمام المداحين ، وهذا ليس رأيي ، بل رأى أمير الشعراء أحمد شوقى ، إذ يقول :

المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم

وإذا كان لنا أن نميل إلى رأى بعد الذى قدمناه فى تعليل جودة مدائح البوصيرى فهو مايصرح به شوقى فى البيت الثانى : (حب خالص) .

والرجل يمتاز — حقاً — بالإخلاص ، وفيه روحانية قلما نجدها عند غيره من الشعراء .

نعم . سبقه الشاعر المحب ، سلطان العاشقين — كما يسمونه — أبو حفص عمر بن أبى الحسن المعروف بابن الفارض ، ولكن هذا شهر بالحب الإلهى ، وقد شغل أطول قصائده بالحديث عن حياته الروحية ، وبما ملك عليه نفسه من حب الذات الإلهية .

أما بقية قصائده ففيها الحديث عن الحب ، وعن الخمر ، ولكنه — على ما هو مشهور — يعنى الحب الإلهى ، والخمرة الإلهية ، وليس له فى مديح الرسول إلا النزر اليسير .

ومن ذلك قصيدة له ميمية ، وقد ذكر بعض الكاتبين أن البوصيرى تأثر بها ، ويستدل على ذلك بموافقة بعض أبيات من شعر البوصيرى بعض أبيات من هذه القصيدة ، ولكن شتان بين ميمية ابن الفارض وبردة البوصيرى .

ويقول الدكتور زكي مبارك : وأغلب الظن عندى أن البوصيرى استأنس عند نظمها — يعنى البردة — بميمية ابن الفارض ، ودليل ذلك — عنده — تشابه المطلعين ، يقول ابن الفارض :

هل نار ليلى بدت ليلا بذى سلم
أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم
أرواح نعمان هلا نسمة عرضت
وماء وجرة هلا نهلة بفم

ومطلع بردة البوصيرى :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم

فذو سلم ، وهبوب الرياح ، وإيماض البرق مما اشترك فيه الشاعران ، مع وحدة الوزن والقافية .

يضاف إلى ذلك أن ابن الفارض قال :

يالائماً لامنى فى حبهم سفهاً كف الملام فلو أحببت لم تلم

فتابعه البوصيرى ، فقال :

يالائمى فى الهوى العذرى معذرة | منى إليك ولو أنصفت لم تلم

وكان شوقى أقرب إلى بيت ابن الفارض حين قال :

يالائمى فى هواه والهوى قدر | لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

وإذا كان الدكتور مبارك اكتفى بأن البوصيرى استأنس بميمية ابن الفارض فإن بعض الكاتبين يجزم بأن البوصيرى تأثر فى بردته بقصيدة ابن الفارض .

ولا أرى أن لابن الفارض ، وبخاصة ميميته أثراً واضحاً فى قصيدة البوصيرى على الرغم من هذه الاتفاقات التى ذكرها الدكتور زكى مبارك ، فالبوصيرى أتى بمعان كثيرة لاظل لها فى قصيدة ابن الفارض ، فهذه لاتعدو مقدمة صغيرة ليس فيها إلا الحنين إلى أماكن فى الحجاز ، وإلا تأكيد لحبه الذى لم يحل عنه :

ماحلت عنهم بسلوان ولا بـــدل | ليس التبدل والسلوان من شيمى

وهو يتحسر على أيامه بالخيف :

آهاً لأيامنـــا بالخيف لو بقيت | عشراً، رواها عليها كيف لم تدم

هيهات ، وا أسفى لو كان ينفعنى | أو كان يجدى على مافات. واندمى

هذه هى كل المعانى التى تضمنتها قصيدة تبلغ عشرين بيتاً .

وكل ما يمكن أن يقال أن بين قصيدة ابن الفارض ومقدمة قصيدة البوصيرى بعض التشابه ، وحتى هذا القدر ليس مسلماً ، فيكفى أن ننظر فى المعانى الرائعة فى مقـدمة البردة لنحكم بأن ابن الفارض لم يحم حولها ، أو على وجه الدقة : لم تحم هذه المقدمة حول قصيدة عمر بن الفارض .

وهذه بعض أبيات من غزل البردة :

فما لعينيك إن قلت : اكففا همتا ... وما لقلبك أن قلت : استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم ... ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى ... مثل البهار على خديك والعنم
نعم . سرى طيف من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذات بالألم

وربما قيل إن البوصيرى تأثر بابن الفارض فى تكوين شخصيته الصوفية ، وهو قول غير بعيد عن الصواب ، فما نظن أن شاعراً كبيراً ومتصوفاً نابها كالبوصيرى يصحب كبار رجال الطريق ، ويجهل شعر ابن الفارض ومواجيده ، وقد عاش ابن الفارض فى مصر ومات والبوصيرى فى ريعان الشباب . فإذا كانت وفاة الأول فى سنة ٦٣٢ هـ ، وولادة الثانى فى سنة ٦٠٨ هـ كان معنى ذلك أن سن البوصيرى كانت عند وفاة ابن الفارض أربعاً وعشرين سنة ، ولم يكن مكان ابن الفارض مجهولا حتى نقول أن البوصيرى كان يجهله .

شوقي يتحدث عن بشائر المولد النبوي

وحال العرب عند البعثة

أتيت والناس فوضى لا تلم بهم   إلا على صنم قد هام فى صنم

كما يتحدث عن الإسراء والمعراج ، وعن الهجرة ، ثم يعود فيفضل الرسول على البدر حسناً وشرفاً ، وعلى الجبال والأنجم والليث ، ثم يشبه وجهه الشريف ببدر الدجى ، ويذكر يتمه — صلى الله عليه وسلم — وزهده فى الدنيا ، وجوده ، وأثر شريعته فى الناس ، ويعلل حروبه فى أبيات قوية صافية ، ويذكر الخلفاء الراشدين ، وحسن بلائهم فى نشر الإسلام ، ثم يصلى على النبي وآله ، ويختم بهذه الأبيات :

يارب هبت شعوب من منيتها   واستيقظت أمم من رقدة العدم

سعد ونحس وملك أنت مالكه   يديل من نعم فيه ومن نقم

رأى قضاؤك فينا رأى حكمته   أكرم بوجهك من قاض ومنتقم

فالطف لأجل رسول العالمين بنا   ولا تزد قومه خسفاً ولا تسم

يارب أحسنت بدء المسلمين به   فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

وإذا كان شوقي ختم قصيدته بهذا المعنى ، تخلف المسلمين ، وتفكك الأواصر بينهم ، فقد ألم به أيضاً فى أواخر الهمزية إذ يقول :

أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة   فى مثلها يلقى عليك رجاء

أدرى رسول الله أن نفوسهم   ركبت هواها والقلوب هواء

متفككون فما تضم نفوسهم   ثقة ولا جمع القلوب صفاء

رقدوا وعزهم نعيم باطل   ونعيم قوم فى القيود بلاء

ولعل حال المسلمين الآن أسوأ مما كانت عليه فى أيام شوقى ، وإن كانوا آنذاك فى (القيود) . فإن مأساتهم اليوم أشنع وأفظع ، فليسوا فقط (متفككين) وإنما يحارب بعضهم بعضاً ، ويتربص بعض ببعض الدوائر ، حتى أطمعوا فيهم أعداءهم ، وجعلوا للدخلاء عليهم سلطاناً .

وأى هوان ، وأى هوى ، وأى فقد للثقة من أن يصبح المسلم عدوا لأخيه المسلم ، لا يكتفى بأن يتخلى عنه وقت الشدة ، بل يحاربه ، أو يستعد لحربه ، وفى أيام شوقى كان شعراء يرددون معنى جميلا ، هو أن أى مصاب يلحق بقطر عربى يشيع الحزن والأسى فى كل البلاد العربية والإسلامية ، فإذا بكت دمشق بكت لبكائها بغداد والقاهرة وعمان والرياض .

أما فى أيامنا هذه — وبكل ما تتحمل النفس الإنسانية من أسى وأسف — نرى بعض المسلمين يظهر الشماتة إذا حلت كارثة بمسلمين آخرين ، بل إن بعض الأقطار الإسلامية ، تحارب قطراً آخر ، أو تعين على حربه ، فأى تفرق ، وأى تفكك ، وأى تخاذل أسوأ من هذا التفرق والتفكك والتخاذل .

وإنا لنلجأ إلى الله — وحده — جلت قدرته ، أن يعيد المسلمين إلى صوابهم ، وأن يهديهم إلى أقوم الطرق ، وأن يجمع كلمتهم على الحق ، وألا يصدق فيهم قوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون »[1] .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٦٥ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
كلمة	٣
الشعاع الأول	٥
ميلاد أمة	٨
فى ذكرى المولد النبوى	٢٠
شهر ربيع الأول	٣١
الأشهر الحرم فى كتاب الله تعالى	٤٣
عام الحزن فى حياة الرسول	٦١
من كذب علىّ	٧٠
شاعر الرسول فى محنة (كعب بن مالك)	٧٧
مولد الرسول فى المدائح النبوية	٨٧
المدائح النبوية	١٠١
شعراء المدائح	١٠٩
حسان بن ثابت	١١٢
البوصيرى	١٢٣
شوقى يتحدث عن بشائر المولد وحال العرب عند البعثة)	١٣٤

رقم الايداع ١٦٥٩/١٩٨٢

الترقيم الدولى ٨ـ١٢٨ـ٢٤١ـ٩٧٧ ISBN